بن جبار محمد

أربعمائة متر فوق مستوى الوعي

"حكاية بيبليوغرافية"

رواية

الأمل
للطباعة والنشر والتوزيع

رواية

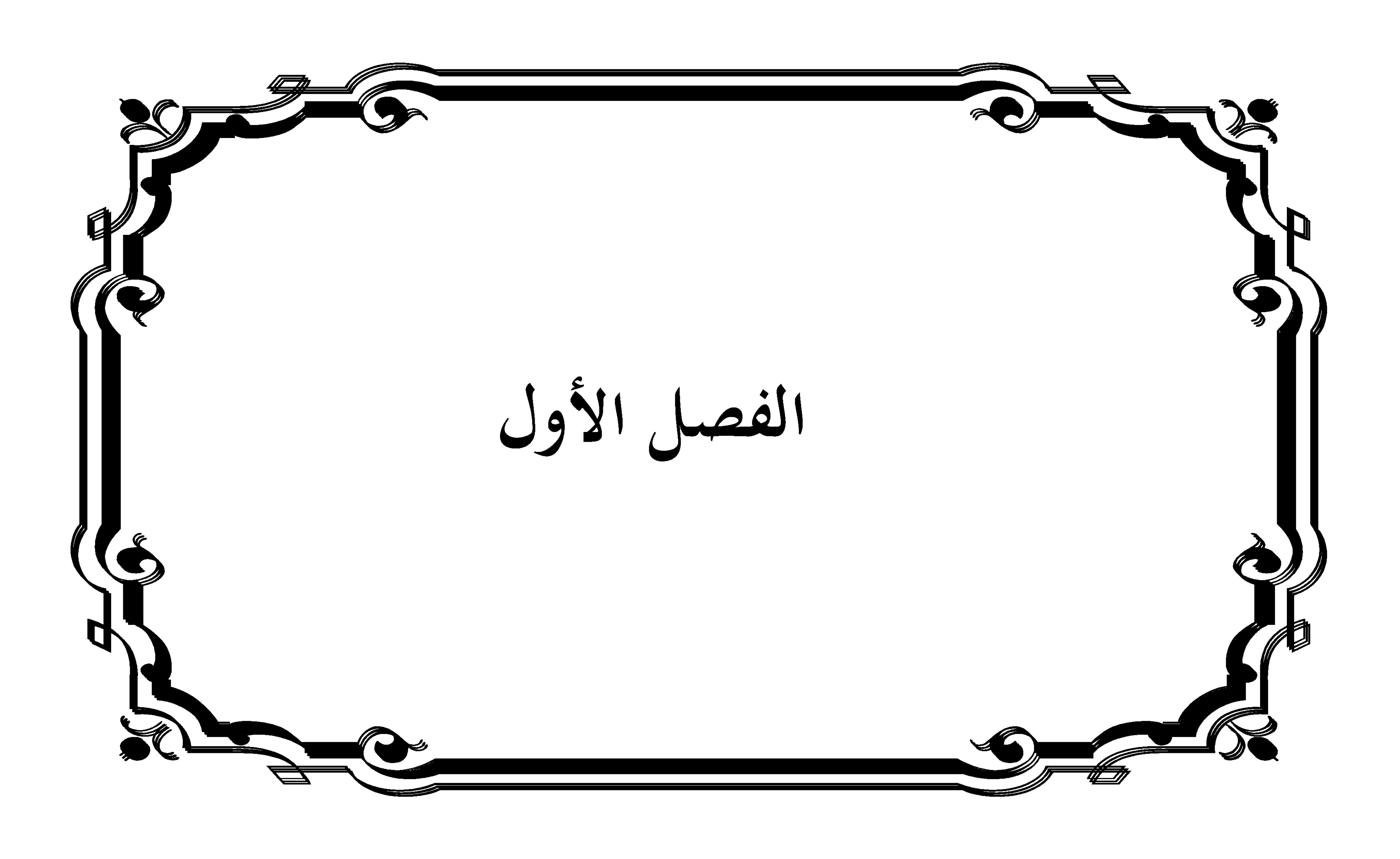
إهــداء:

لم يكن لهذا النص أن يرى النور في كتاب، لولا وجود استثنائي لامرأة في حياتي؛ إيمانها بموهبتي منحني القوة و الحافز لأكتب و أستمر: زوجتي... إليك امتناني بمحبة .

محمد بن جبار.

"ها قد وصلت إلى منتصف الطريق ، منتصف العمر ، من الضروري الالتفات إلى الوراء قليلا ، ثم استمر حتى أعرف من أين بدأت و أين أصل بأقل الأضرار الممكنة ، الكتابة "الخمسينية" متعة تستدعي معها كل شيء ، كل شيء تقريبا و بدون تحفظ ، هذا التهور هو ما يريده القارئ و أنا كتبت بدون تحفظ "

بن جبار محمد.



الفصل الأول

أربعمائة وعشرة أمتار هي المسافة المحسوبة بين مقر العمل وأول نقطة انتظار الحافلة، المسافة نفسها والطريق نفسه المحاذي لبستان الزيتون، تتقلص تلك المسافة شتاءً وتطول في موسم الربيع، وفي الصيف تبدو كأنها لا تنتهي لتصبح منهكة ومتعبة، لأجل بلوغ نقطة انتظار الحافلة. تلك المسافة أحفظها منذ أكثر من أربع وعشرين سنة، أحفظ تعرجاتها، وأحفظ حفر الطريق، ولون الشوارع، وأرقام مداخلها واتّجاهاتها، لون الأبواب الحديدية والخشبية، سكان العمارة التي تقع إلى جانب نقطة توقف الحافلات. أعرف الوجوه التي أصبحت مألوفة لديّ، تقاطعني وأنا متوجه إلى العمل، وأعرف تلك التي تريد بلوغ نقطة الانتظار. أصبحت بعد هذه السنوات الطويلة واحدا من الأشخاص الذين يُستدل بهم على التوقيت، عادة ما أمرّ أمام العمارة على التاسعة صباحا بعد نزولي من الحافلة الريفية، وأعود من العمل على الرابعة مساءً. إلا ان توقيت العودة مضبوط للغاية أكثر من وصولي صباحا، لأنني بطبيعة الحال تحت رحمة أصحاب الحافلات، ربما لحوادث الطريق، أو لعطل ما، أو حاجز للدرك أو الأمن. وفائي للزمن و للإدارة يكاد يكونان شغلي الوحيد، بلغت خمسين سنة، وأعرف جيدا معنى أن تبقى الإدارة مفتوحة في مواعيدها لاستقبال المواطنين، وأعرف أهمية ثماني ساعات بالنسبة لي، غالبا ما كان مدرائي السابقون يلحّون على التوقيت فيضعون مذكرات وتنبيهات، ويقيّمون الموظف تبعا لانضباطه مع الوقت القانوني، حين دخوله إلى مقر عمله، وخروجه منه، ولا يهمّهم درجة إتقان العمل بقدر ما يهمّهم الحضور

إلى مقر القسم. أربع عشرون سنة في حقيقة الأمر قمتُ شخصيا بتسييرها يوميا، لقد طرأت عليّ تغييرات جذرية، منذ كنت شابا يافعا صاحب أربع وعشرين سنة، كنت أذرع المسافة بين نقطة توقف الحافلة الريفية ومقر العمل بحماس ونشاط وحيوية منقطعة النظير، كنت أهرول، أبتلع تلك المسافة في خمس دقائق، كنتُ أبتسم وأوزع البسمات والتحيات على الموظفين، وأبدأ عملي المعتاد بسهولة، وعندما أرفع رأسي أكون قد أنجزت كثيراً من المهام المسندة إليّ. الآن أصبح قطع الطريق تحدياً كبيراً، أسير وأنا أسمع حشرجة في صدري، وتزداد نبضات قلبي، وأشعر بالتعب يتملّكني، وعندما أصل إلى مقر القسم، أبقى لعدة دقائق أتصنت لآلام رجلي التي لم تعد تقويان على تحمّل هذه المسافة، ولا تحمّل هذا الجسد المترهل. تحركاتي أصبحت مقيدة، وجلوسي أصبح أطول، ولا أغادر المكان إلا إذا كان هناك ضرورة ملحّة للخروج، كخرجة ميدانية للمعاينة، أو التحقيق في إطار المهام والصلاحيات الإدارية التي خولتها لي الوظيفة. في مسافة أربعمائة وعشرة أمتار، عالم يتحرك، تلاميذ المدرسة والمتوسطة، معلمون يسرعون الخطو، الأهالي منصرفون لشؤونهم اليومية، سيارات، مشاة، محلات تجارية، محل لتصليح وطلاء السيارات، مقبرة النصارى، مدرسة تعليم السياقة، محل بيع الآثاث القديمة، بساتين الزيتون، مزرعة نموذجية، مدرسة ابتدائية ومقرعملي، وقسم فرعي للفلاحة. هذه المحلات في طريقي متراصة على الجانب الأيسر للطريق وأنا متوجه إلى العمل، في حين بساتين الزيتون على جانبي الأيمن، وقد يحدث أن أخرج من العمل مساءً، فما أن أضع الخطوة الأولى على الطريق الإسفلتية حتى تتوقف سيارة ما لتقلني إلى نقطة توقف الحافلات، أسعد بذلك لأنني سأختصر المسافة في دقيقة أو أثنتين عوض ربع ساعة أو أكثر. حدث أن أحد أصحاب السيارات كان يتوقف

لإيصالي إلى مكاني المعتاد، يقلني كل مرة دون أن يسأل عن وجهتي، أصبحت وجها مألوفا في المنطقة، يعرفون تماما متى أصل ومتى أغادر، لكن صاحب السيارة لا أعرفه تمام المعرفة، يظهر أنه سائق سيارة كلونديستان، لأنه غالبا ما يركن سيارته على جانب الطريق المحاذي لمكان توقف الحافلات، آخر مرة سألني عن وظيفتي، قلت له دون تردد موظف بالقسم الفلاحي، نظر إليّ جيدا متفرسا في وجهي كأنه يتحقق من كلامي، نظر أمامه وقال لي وهو متيقن من إجابتي : أعرفك جيدا يا عواد، لكنك أنتَ لا تعرفني، أنا عبد الهادي، بيني وبينك أمور مشتركة ! متشرف بمعرفتك وشدّ بيدي مصافحا، إن احتجت إلى شيء يكفي أن تسأل عن عبد الهادي ليرشدك أي شخص إليّ. منذ ذلك التاريخ كلما مرّ بجانبي يوقف سيارته ويقلني فيها، تحت تلك الأشعة الملتهبة لشمس صيف أغسطس، في عدة مناسبات يمرّ بجانبي ويحملني معه إلى نقطة التوقف، مما استدعى الأمر أن أفكّر في هذا المخلوق الذي يتكرم عليّ. ومنذ ذلك اليوم، أصبحت أحظى باهتمامه المتزايد. عجيب هذا الشخص، تساءلت عدة مرات عن الاهتمام المفاجيء بي، قلتُ لربما يكِنّ لي احتراما خاصا، في حقيقة الأمر لم يكُنْ لي فضول زائد في معرفة التفاصيل وأنا أذرع هذه المسافة متثاقلا، منهكا، متعبا، الشيء الوحيد الذي يساعدني على المشي هو الانحدار الطفيف للطريق. فبعد مسافة زمنية تربو على ساعة أو أكثر أصل إلى البيت، تعود تلك الصورة للكلوندستان الذي سألني وهو يعرفني معرفة جيدة، ولم يخطئ في ذلك، وقد عرّفني جيدا بنفسه، وبمقر سكناه، وكان يحملني معه كلما مرّ في طريق عودتي. استلقيتُ على أريكة في صالون البيت، واستغرقت في نوم كاذب، ما إنْ أغمضت عينَيّ حتى عادت تلك التفاصيل التي لم أستطع تداركها من قبل، تراءت لي تلك

المشاهد مرة أخرى من زوايا مختلفة، ولكن أقل حدّة من تلك المشاهد التي حدثت لي مع الطبيبة البيطرية، حيثُ توّجت علاقتنا السريعة على موعد غرامي في شقتها القريبة من مقر عملي، في أمسية ذلك اليوم حملت معي بعض الهدايا وبعض الفاكهة، حلقت ذقني، وارتديت ربطة عنق وبدلة الأمسيات الخاصة التي اشتريتها من بائع الملابس التركية. وصلتُ في الموعد، خرجنا إلى مطعم في مكان بعيد عن عيون المعارف، عدنا بعد العاشرة في ليلة ربيعية مقمرة، ونمت معها في فراشها في ليلة مثيرة لم أشهدها في حياتي، كانت سعيدة معي، إلى أن حدث شيء لم أكن أتوقعه، فقد نهضت من إغفاءة طويلة وطردتني بقوة وقسوة شديدتين، رمت حوائجي خارج شقتها وهي تصرخ بقوة. لبست ثلاثة أرباع ملابسي في مدخل الشقة بعد نزول اضطراري من الدرج الطويل الملتوي، لم أضع أي شيء في حسباني سوى الخروج بأقل الخسائر من هذه المحنة، خشيتُ أن يظهر أحد الجيران ويتعقد الأمر، خاصة أنني تعلمت من الوظيفة، أن تحافظ على قدر الإمكان على سمعتك الشخصية، وتلك الصورة الكاذبة لشخص سويّ ونظيف ومتخلق وراجح العقل وسامي العواطف. أظن أن الطبيبة هي الوحيدة التي تعرفني أنني غير متخلق وغير سوي ومختل العقل والسلوك، على الأقل بالنظر على أنني متزوج، ولي أبناء وبنات، ومركز اجتماعي، وأؤدي الشعائر الدينية ولا أفرّط في صلاة الجمعة، وفي ذلك اليوم ألبس العباءة البيضاء، أظهر فيها كملاك نزل للتو من السماء السابعة. صديقتي البيطرية وضعتني خارج بيتها، لحسن الحظ ألاّ أحد انتبه لذلك، والصفة الملائكية مازالت تلازمني حتى يحدث العكس. مشيت عدة أمتار وصولا إلى نقطة انتظار الحافلة، هذه النقطة لم أرها قط ليلا رغم أربع وعشرين سنة من الخدمة، كانت نقطة هادئة جدا، ضوؤها خافت صادر عن

مصباح عمود كهربي، يوحي بالطمأنينة رغم انتشار الظلام والظلال في المناطق القريبة منه، ربما لأن هذه النقطة على حافة الطريق الرئيسي وقريبة من المجمع السكني حيث كنت أنام مع صديقتي، لم أفكّر في الطبيبة البيطرية التي طردتني شر طرد، وقد تعرضتْ إلى نوبة غضب عارمة اختلج لها قلبي، أنا أفكّر الآن كيف أصل إلى البيت في هذا الجو البارد رغم احتدام مشاعر متناقضة في نفسي، الخوف بالشفقة، الغضب بالرضا، السخط بالتعقل. بقيت أكثر من ساعة وقد قاربت الساعة الثالثة صباحا إلى أن توقفت شاحنة وطلب مني أن يقلني إلى مدخل المدينة التي أسكنها. لم أفكّر في سلوك ودوافع الطبيبة في طردي بهذه الكيفية، رغم أنه لم يصدر مني ما يغضبها، أقمت معها علاقة جنسية متميزة، كانت مبتهجة، تصرخ من المتعة، من الأورغازم، حتى أنا لم أصدق أنني ذلك الموظف الممل الجاف المتخلق الرزين المتواري وراء أقنعة سميكة من الاعتبارات الاجتماعية والأخلاقية والدينية والمهنية والوظيفية، كانت ليلة العمر ولكن نهايتها غير سعيدة، لو قدر الأمر أن أبقى إلى صباح اليوم التالي لاعتبرت ذلك فرصة العمر لا تضاهيها أي ليلة أخرى في مسار حياتي، وأنا قد شارفت على الخمسين سنة بالتمام. بعد ظهيرة ذلك اليوم تمددتُ على الأريكة لتصطف تلك المشاهد الرائعة من العري والجنس والفرح، فعلا كنت أتحدث إليها بنبرة أقرب إلى الفرح الطفولي، تحرّرت من خجلي، تحفظي، حشمتي، شعرتُ أنّ هناك جدراناً من الطوب تتساقط واحدة تلو الأخرى في داخلي، أنا أخف، سعيد، نزق، مارد خرج من قمقمه الذي كان حبيسه لألف سنة، أشبه بشخص تحرّر من قيوده، حتى ذلك الألم الذي كان ينتابني على الدوام من تشدد عضلي لم أعد أشعر به. تمددتُ على الأريكة بوضع استلقاء أكثر تحررا، وزفرت زفرة حارة، تنم عن تجربة

فريدة لم يسبق لي أن عشتها، لكن تبقى نقطة استفهام تؤرقني لماذا أقدمت وردية على ذلك السلوك الذي لا مبرر له، بعد أن تمتعنا وحلقنا بعيدا في السماوات، وشربنا نخب سعادتنا، وتألقنا ولمسنا بأيدينا ملكوت البهجة والفرح. نهضت من الأريكة بعد إغفاءة لعدة ساعات لم أتوصل إلى شيء ذي معنى في تلك الخرجة المفاجأة لوردية وهي تطردني من البيت بقسوة، هو نفسه السؤال العالق في ذهني الذي يخفت ويشتد حول دوافع عبد الهادي صاحب سيارة كلوندستان الذي أبدى اهتماما خاصا بي دون مبرر منطقي، كان يقف بسيارته ويقلني إلى نقطة الانتظار. وبعد السؤال عن مهنتي التي دون شك يعرفها جيدا ولم يخطيء في اسمي، وقد أكّد لي أن بيني وبينه أموراً مشتركة !!!، كان على الأقل توضيح تلك الأمور أو تفسيرها حتى أحتفظ بلامبالاتي وأنتبه إلى أمور مهمة في حياتي كالمعاش والديون المتراكمة، الأعباء المنزلية، تجهيز البيت، مؤونة الأولاد، تكاليف العلاج. أريد ان أعرف لماذا اهتم بي عبد الهادي وعرض عليّ مساعدته ؟ في الحقيقة أنا لست مضطرا إلى أن يساعدني أحد، أنزلني في موقف الحافلة ولم يتردد أبدا في توصيلي وهو يبدي اهتمامه بي، طبعا هو حرّ في حملي أو إمتناعه ، له حق التصرف في سيارته، إنها سيارته ولم أكن شريكا له فيها، يستطيع أن يفعل ما يشاء هي ملكه، وأنا أشكره، لكن فضولي طغى عليّ، يؤرقني ذلك ولم أجد له إجابة شافية . لحدّ الأن أنا إنسان محترم، يعرفني أهل المطمر أنني موظف بسيط، نظيف اليد، لا يثير أي شبهة، خلوق، مؤدب وكثير من الصفات التي لم أتوصل إليها، أكيد أن وردية تعرف عني الكثير، على الأقل أنني غير خلوق وغير مؤدب أو بمعنى آخر تعرف أنني لستُ إنسانا محترما بلغة أصدقائي ومعارفي وأسرتي وجيراني وزملائي في العمل .

لي رغبة جامحة في أن أسأل عبد الهادي عن سر اهتمامه بي، أريد ان أسأله عن الأمور المشتركة التي بيننا، ربما أنه كان موظفا مثلي وينظر إلى الحياة مثلما أنظر لها، حياتي التي تسير في خط مستقيم، بشكل اعتيادي ولا أثير أي زوبعة أو مطب أو اهتمام الآخرين، لكن هناك فروق بيني وبين عبد الهادي، أكيد هناك دائما فروق مستترة وظاهرة بين الأشخاص، مازلت أعتقد أن تلك الفروق لم تكن من الأشخاص ذاتهم، بقدر ماهي فروق صنعتها البيئة وصنعها المجتمع وصنعها كشف الحساب الشهري والمصلحة المباشرة والتربية والثقافة، ودخل الشخصية ذاتها في تكوين الشخص منعدمة ومهملة، القليل من الأشخاص من الذين لهم الجرأة في تطويع صلصاله ليصنع به ما يشاء، كل شيء هنا يطغى عليه المجتمع والدين والزواج القهري، هذه الأمور أخفت عني الاستمتاع بحياتي كما أريدها، لم أكن أعرف علاقة خارج حيطان الفراش الزوجية الذي يحول دون النظر من وراء أسوارها، المجتمع والقانون والدين قنّنوا هذه العلاقة بالتحريم والتجريم والإقصاء، لا نفعل شيئا، نموت في فراشنا من الغيظ والقهر، ونفوّت فرصاً أكيدة في الاستمتاع بالحياة. ليلة مع وردية تعادل ألف ليلة من الليالي التي عشتها مع زوجتي التي أنهكتها التربية والتفكير في المعيشة اليومية وتنشئة الأولاد على أخلاق أبيهم وأخلاق المجتمع، أخلاقي التي لم تتزعزع ولم تتبرم من وضعي الوجودي والعائلي والمجتمعي والمهني لحظة واحدة، الأمور في غاية الهدوء والرتابة والملل. ولكن لم يكن في وسعي إبداء الضجر، لأن إلى حد قبل تلك الليلة غير المأسوف عليها كنت أحسب أن الحياة السعيدة بذلك الشكل النموذجي. أكيد أن عبد الهادي سائق

"الكلوندستان "له رأي مخالف في هذه الحياة تبعا لظروفه الغامضة، فتصرّف معي تصرفا أخويا بكرم حاتمي، آه كم هو محرج أنني لا أعرف شيئا عن خلفية كلامه معي، هذه هي السنة الخامسة والعشرون من عمر الوظيفة، قدّمت زهرة شبابي لأجل الخدمة العمومية، ولا أحظى بالاهتمام مثلما أحظى به مع عبد الهادي. ربما يوجد سرّ آخر وأنا قد اعتدت على حياة رتيبة ميكانيكية لا بهارات فيها ولا توابل، هي نفس النكهة منذ أن عرفت تذوق طعم الحياة كما صوّروها لي، من المدرسة والمسجد والحي الذي نشأت فيه والمعهد والخدمة العسكرية والعمل، لا أعرف شيئا آخر له مذاقٌ متميّزٌ، هي نفس الأفكار التي تنتقل من المسجد إلى المدرسة إلى المعهد الذي تخرجت منه، وهي نفس الأفكار التي أحافظ عليها وأعلمها لأبنائي، فقط أنّ درس وردية يبقى أمرا خصوصيا يجب ألاّ يطلع عليه أبنائي وزوجتي، فإن تلك الهالة التي أحتفظ تنفعني على المدى المنظور. أرتشفت فنجان قهوة وأنا أفكّر في صاحب السيارة الذي أبدى اهتماما غير طبيعي بشخصي، حتى تلك التحية المميزة التي كان يلقيها عليّ كلما صادفني في الطريق، بخل بها عليّ، أريد أن أعرف المزيد عنه حتى أكتشف مكامن وأسرار إقدامه على عرض مساعدته لي بتلك السهولة، وهو لا يعرف أنني أتألم من ذلك السلوك الذي لم أستطع تبريره، أو على الأقل أثار فضولي بشكل لم يسبق له مثيل، وشغلني عن أمور أكبر وأكثر أهمية .

يجب أن أسأل عن عبد الهادي هذا ؟ لم تكن حياة الأشخاص وخصوصياتهم وسيرهم وتشعب علاقاتهم تهمني، لأنني معتاد على التعامل مع

الأشياء ببساطتها، بنظرة وحيدة بلوني السواد أو البياض، بآلية أبيقورية اللذة أو الألم، الأشياء التي تؤلمني أبتعد عنها، وأتفاداها إلى أقصى درجة، هذه الأفكار صنعت مني إنسانا بليدا وأحمق، ورجلا مملا ومقرفا وساذجا، أفكّر على الدوام في الجنة والنار، وأحسد أولئك الذين يعربدون ويصولون ويجولون في علاقات معقدة وفي غاية الغرابة، بينما أنا منذ أربع وعشرين سنة أسير في نفس الطريق، في نفس الشارع، في نفس الاتجاه، في نفس التوقيت. ورغم ذلك لم أشعر أن هناك حياة أخرى أكثر إثارة، الحياة بألوان الطيف، الحياة بنكهة متعددة ووذوق متميز ومركب، الحياة أكبر من مجرد لذة وألم، الحياة مثل الليلة الحارقة الخارقة المثيرة، الحياة مثل وردية، أكثر شبقية وجنوناً، الحياة أكثر وأكبر من مجرد أربعمائة وعشرة أمتار. ربما أنّ عبد الهادي يعرف الحياة أفضل مني ويتصرف من خلال تجربته الغنية في الحياة، فمواقفه تكون تبعا لهذه التجربة باستخلاص دروس متعددة وواقعية، فكان تصرفه بهذا الشكل الذي أثار فضولي وهزّ قناعاتي التي كنت أعتقد أنها تصمد مدى الحياة، طالما أنّي لا أضر الناس ولا أنفعهم، وفي غنى عنهم أيضا. عزمت أن أسأل عن عبد الهادي سائق الكلوندستان، امتثلت مجموعة أسماء في ذهني، انتقيتها بعناية لتعطيني المزيد من المعلومات عن هذا الشخص لعلي أجد شيئا يشفي غليلي ويسدّ رمقي ويملأ فضولي بأجوبة مقنعة، لأصرف النظرعن هذه المسألة المقلقة، التي تضربني في حركة أشبه بحركة الأمواج، أريد أن أستعيد هدوئي وراحتي النفسية ولامبالاتي، وأكمل مسار أربع وعشرين

سنة دون حوادث تذكر، لا شيء يذكر هكذا نسجّل في سجل المداومة الشهري حتى نتفادى السؤال والصداع، أريد أن يكتب في سجلي الشخصي : لا شيء يذكر لأذهب إلى قبري مطمئن البال، مرتاح الضمير، رغم أنني اكتشفت بعد تلك الليلة مع وردية، أنّي مجرد قبر يسير إلى حتفه بكل هدوء وطمأنينة ورتابة إلى حد السخافة. الانتحار ليس كما يتصوره البعض وضع حد للحياة بكل وقاحة، لا تخلو من مشاهد عنف وتعاسة، الانتحار أيضا هو عندما تسير بنفس الخطوات وبنفس العقلية وبنفس الحمل الأخلاقي والديني والمجتمعي، تسير في نفس الاتجاه وتلوك نفس الكلام ونفس الأفكار وتصاحب نفس الأشخاص وتعتقد نفس الاعتقاد و تلبس نفس اللباس .

عادة ما يكون تصميمي على شيء ما بطيئا، فيه تردد، غير واضح المعالم، لا أتصور ملامحه إلا بعد فترة، أحتاج إلى وقت لكي أهضمه وأتبين كثيرا من تفاصيله، حياتي تسير على هذا المنوال، تخونني الشجاعة في الإقدام فيها بتلك الجرأة التي يتميز بها بعض من أعرفهم إلى حد التهور. ماذا أخسر وأنا أواجه عبد الهادي وأطرح عليه بعض الأسئلة، وأشبع فضولي وأنهي هذا الأمر بسهولة، وأنتقل مثلما ينتقل الأشخاص من موضوع إلى آخر دون أن ينتبه .

طلبت من مديري رخصة غياب لمدة ثلاثة أيام لأجل أمر شخصي عاجل، وافق عليها المدير دون تردد، أول مرة منذ مدة طويلة أطلب الإذن بهذا الشكل، تقدمت مني السكرتيرة وناولتني مقررا ممضيا من طرف المدير، كانت تبتسم في

وجهي، و قالت لي : عواد، نحلم أن نختطف ثلاثة أيام ونضيف لها ثلاثة أخرى لننسى هذا المكان التعيس، كأن نقوم بكراء غرفة في فندق على شاطيء البحر، أو نحجز مكانا ما في مطعم رومانسي، نتعشى على شموع معطرة وموسيقى هادئة، العمر قصير يا عواد ! ثم انفرجت شفتاها بخبث، أنا أحلم بذلك ولكن زوجي مثلك، ملأ حياتي نكداً وغياباً طويلاً، وإهمالاً متعمداً، زوجي مثل جرار مزرعة لا يأتي إلا بعد انتهاء المواسم. كنت أتفرس في الورقة البيضاء التي ناولتني إياها، و أقرأ الأيام الثلاثة التي جاءت بيسر دونما تقديم مبرر مقنع، أول مرة يحدث هذا، لم يسألني المدير عن وثيقة أدعّم بها طلبي، اكتفيت بسبب غامض وغير مفهوم على الأقل بالنسبة للعرف الإداري والذي تعارف عليه الموظفون، قالت لي السكريتيرة بصحتك! وكأنها تنتظر إجابة ما، تدعم بها شكوكها، قلت لها عندي أمور شخصية، يجب أن أسويها هذه الأيام، لا علاقة لي بالمنتجعات ولا الشواطيء والفنادق، أعرف ذلك يا عواد، أنتَ لك علاقة بالشقق فقط، ثم أردفت بضحكة مشاكسة لتصحيح مسار حديثها: أنت مثل زوجي، تظهرون لطفاء وناس ملاح أمام العيان ولكن ما تعملونه في الخفاء، لا يعلمه إلا الله، أحسست أن العرق البارد بدأ يتصبب على جبيني، تريد خديجة السكريتيرة استفزازي، تريد تسوية أمر قديم بيننا، تقحم زوجها في كل حديث، تريد أن تشعرني أن لها زوجاً مثل كل نساء العالم، وهذا الزوج يشبهني أيضا، لا أعرف تماما هل تعرض للطرد من الشقة مثلي ولبس ملابسه في الشارع، لا أشك أنها تعرف كثيرا عن قصة الشقة هذه، يا إلهي ارحمني، ستفضحني هذه المرأة اللعينة التي لا تترك شاردة ولا واردة إلا وحشرت أنفها فيه، همست لنفسي، من أين لها بخبر الشقة ؟ كنت أنظر من حولي لعل أحداً ما كان يسمع كلام خديجة،

الموظف الذي معي بالمكتب كان منهمكاً في عمله، ولا أظنه سمع شيئا ما تفوهت به خديجة. استفهام آخر، يضاف إلى مجموعة استفهامات أخرى، حتما سيصيبني الأرق من هذه المخلوقات المشاكسة المستفزة، تريد خديجة أن تنتقم لنفسها بطريقة ما. حاولت خلال مساري المهني ومنذ أن التحقت بالعمل قبل خمس وعشرين سنة، أن أظهر بمظهر الرجل المستقيم، الذي لا يأتيه الباطل بين يديه، عفيف، طاهر، أبيض ناصع، "ناس ملاح "، كنت أجاهد أن أكون حسن السيرة والصورة والصوت والشكل والمضمون، كانت خديجة التي التحقت بالعمل، وفي بداية مشوارها الوظيفي، متعلقة بي، تريد أن تنفرد بي، لكن لم أترك لها فرصة لتفعل بي ما تشاء، كنت كثير الحجج وأختلق الأسباب الوهمية، حتى فكرت جديا في تغيير مكان العمل، تعلمت من تجارب الأصدقاء، أن العلاقات العاطفية في العمل من أكبر الأخطاء التي يقترفها الموظف في حياته الوظيفية، رغم ذلك وضعتُ بيني وبينها حائطا خرسانيا لا قبل لها باختراقه. وبمرور الزمن، بدأ هذا الحائط في الزوال، وإذا بخديجة تريد أن تقترب مني مثلما فعلت أول مرة.

انتابتني موجة من الكآبة وأنا أستمع لكلام خديجة الاستخفافي، فاقتربت منها، كانت تتحدث في التليفون، ترددت في تلك اللحظة، أمهلتها حتى تنتهي من حديثها التليفوني الذي لم يكن له علاقة بالعمل، وقفت عدة دقائق إلى جانب مكتبها، انتظر إشارة منها، نعم عواد، هناك شيء ! لا شيء فقط، أريد أن أعرف ما مقصودك من عبارة " أنتَ لاعلاقة لك إلا بالشقق "؟ !، عواد، لماذا أنت حسّاس إلى هذه الدرجة ؟، أعرفك جيدا، كل كلمة تؤولها، كل حرف نتفوه به تعطي له اعتباراً وقيمة أكثر مما يحتمل الحرف، خديجة، أنا ليس لي علاقة بالشقق ولا بالفنادق ولا بالمطاعم الفخمة، انفجرت خديجة ضاحكة في وجهي،

لا شيء يا زميلي، لا تغضب، أقصد أنكم تعشقون بيوتكم ولا علاقة لكم ببهجة الحياة ولا بهرجها، أنتم مخلوقات خلقت للعمل والجد والكد، تغيرت ملامح وجهها وهي تريد بصعوبة إثبات عكس ما رسخ في ذهني، احمرّت وجنتاها من الحرج، يا عواد، لا شيء، لا شيء. أشاحت بوجهها عني وألصقت عيناها في النافذة المطلة على أشجار التين العتيقة. أنسحبتْ من مكتبها بحشرجة تنم عن توتر ظاهر، رفعتُ عيني نحو النافذة وبقيتُ مسمرا في مكاني، أتأمل بستان التين الذي أشعرني للتو، أن تلك الأشجار شهدت أغلب مراحل حياتي وتشهد على علاقتي بها، في سنواتها الأولى، بعد التحاقها بالعمل تدخلني إلى بستان في جولة قصيرة، بين الأشجار، تحدثني عن كل شيء، تكاد لا تنقطع عن الحديث، تأخذ بيدي وتتوغل بعيدا في البستان وأنا أحاول أن أتملص منها، أجلس إلى جانبها وتتعمد أن تلمس ركبتها بركبتي أو أنها تلتصق بي، لا أفكّر إلا في حركة يديها وهي تلمس أجزاءً من جسدي، أحاول في كل مرة، الابتعاد عنها قليلا، أخشى أن يحدث منّي تصرّف غير لائق، أريد فقط الحفاظ على هذه العلاقة في صورتها الشكلية، تحملق في وجهي وكأنها تريد قبلة طويلة عميقة، حينها ينتابني الخوف، أشعر أن الملائكة الحراس بالقرب مني، يراقبونني على عمل غير محترم في مقر العمل ! أنهض بسرعة وهي تبقى جالسة مسمرة في نفس وضعية الجلوس، تنهض متثاقلة لا تقول شيئا، لكنها تشعر بالخيبة، كانت علاقتها بي علاقة خيبة بامتياز، كانت تترقب أنفاسي في المكتب، كل حركاتي، تنتبه إلى أدق التفاصيل، نبرة حديثي، التفاتاتي، ابتساماتي، علاقاتي بالزملاء، تتحسّس حواراتي مع الزملاء والزميلات، لا شيء يُفسر على أنني أحبّها، منجذب إليها، مهتم بها، أعرف أن قلبها انفطر وخاب ظنها بعد انهيار عصبي كاد أن تودي بحياتها، لاحظت أنها

كانت مهتمة بنفسها وبلباسها وبزينتها، إلى درجة أنني تساءلت عن التكاليف والخسائر التي تتكبدها لأجلي وأنا أتظاهر بعدم المبالاة، لأنني ببساطة لا أبادلها نفس المشاعر ونفس الأحاسيس، ولا أشعر بعقدة الذنب، لأنني لم أتجرأ عليها يوما ولم أقبلها لكي أدفع الثمن، أنا محافظ في كل شيء وأحتاط لكل شيء، أنا لا أحب تهورها، لا تروق لي نظرتها للحياة، لم أقل لها أنني لا أحبها ولكن جمودي وتحجري وبلادتي، أوحت لها أنني لا أحبها وكفى، لا أريد أن أتورط في قبلة لتصبح حجة عليّ، تحرجني بها، أخشى هذه المواقف وهذه الإشارات، من الخطورة أن أفتح على نفسي أبواب الجحيم. كانت مستاءة من تجاهلي لها، كانت تصفني بالقلب المتحجر، آلة صماء، نعم لم تخطيء، أغلب مراحل حياتي قضيتها "روبوت" مبرمج بالانضباط والاستقامة وخال من كل مشاعر الحب تجاه الآخرين، باستثناء بعض المشاعر والغرائز الفطرية التي تتولد وتضخم الزمن، أنا مواطن صالح، دوري أن أكون مواطنا صالحا بربطة عنق ، لم ولن أنزعها ولا أريد من خديجة أن تشدّني من ربطة العنق لتخنق حياتي بها، تركت تلك المسافة، اصطنعت هوة سحيقة، لا يمكنها عبورها، فجأة تذكرتُ تلك الليلة مع وردية، تناسيتُ ذلك، تعمدتُ ألاّ أفكّر أن سبب طردها إياي بتلك المهانة، لأنني أكره أن أواجه نفسي بكل الحقائق، يا إلهي، كم أنا غبي وأحمق وساذج ! كيف أمكنني أن أتصرف ذلك التصرف الذي لا يعبّر إلا عن شخص أخرق ، بلوغي العقلي والنفسي مسألة فيها نظر، كيف أوقعتني بأحابيلها من أول سؤال، أخطأت خطأً فادحا لا تغفره لي وردية مدى وجودي على هذه الأرض، كنت منتشيا على فراشها، مستلقيا، أنهكني التعب من طول ممارسة الجنس معها، سألتني ولم أنتبه إلى سؤالها، سألتني وهي في شبه غيبوبة : عواد، هل تحب زوجتك ؟ نعم يا

حبيبتي، هل أنت سعيد معها، نعم حبيبتي الحلوة، فجأة نهضت بقوة من فراشها كالمارد الذي كان محبوسا في قمقمه، صرخت في وجهي صرخة قوية، كاد أن يتوقف قلبي لها، ذهلت من تلك الوثبة التي وثبتها من فراشها ، كدت أن أقفز من النافذة، لولا أني تداركت الأمر، اختفيت في ظلمات بهو العمارة، عارياً تماما وحوائجي أحملها في يدي ولا أعرف كيف أتصرف ولفظتني العمارة إلى خارجها، كان قلبي يرتجف من الفزع، ولكن اطمأننت أن لا أحد لاحظ وضعيتي وأنا أرتدي الحذاء في منتصف الطريق .

اقتربت من خديجة بحذر شديد وأردتُ أن أقول لها شيئا ما، لكن لا شيء يحضر في ذاكرتي، طغت تلك الصور بشكل غريب، فهمت الآن، عرفت سبب طردها لي ولكن لماذا لم أتذكر ذلك، ربما لأنني كنتُ ثملا ولم أتذكر ذلك إلا بصعوبة، تبا لتلك النوعية من النبيذ، تجعلك صادقا جدا وصريحا جدا ومقرفا في آن واحد، كيف يمكنني أن أجتاز بحراً من الذنوب ومسالك غير سوية من الخيانات لأقول الحقيقة حتى أجد نفسي بنصف لباس في الطريق؟ مضحك ومأسوي للغاية، أن أقول الحقيقة وأتشبث بسعادة واهية، تعلمتُ أن أقول على الدوام أنني بخير، لا أشتكي من أي شيء، أحفظ بعض المقولات التي تعلمتها من الزملاء وبعض الأصدقاء. أدين لهم بنصف معارفي والنصف الآخر لوردية التي لقنتني درسا قاسيا، الحقيقة والصراحة والصدق يجب أن تقال في موضع الحقيقة والصراحة والصدق، الحالة التي وجدتُ فيها نفسي بعد حادثة الشقة ليست بحالة الصدق والصراحة ولكنها حالة خاصة جدا، خارج كل تصنيف، وردية وضعتني في إطار خاص من الحقيقة، كان من الممكن أن أتصرف تبعا لتلك الحالة، ليس من المروءة والشهامة أن تأكل الملّة وتسبّ الغلة. وقفت خديجة طويلا أمامي، تنتظر مني ما الذي

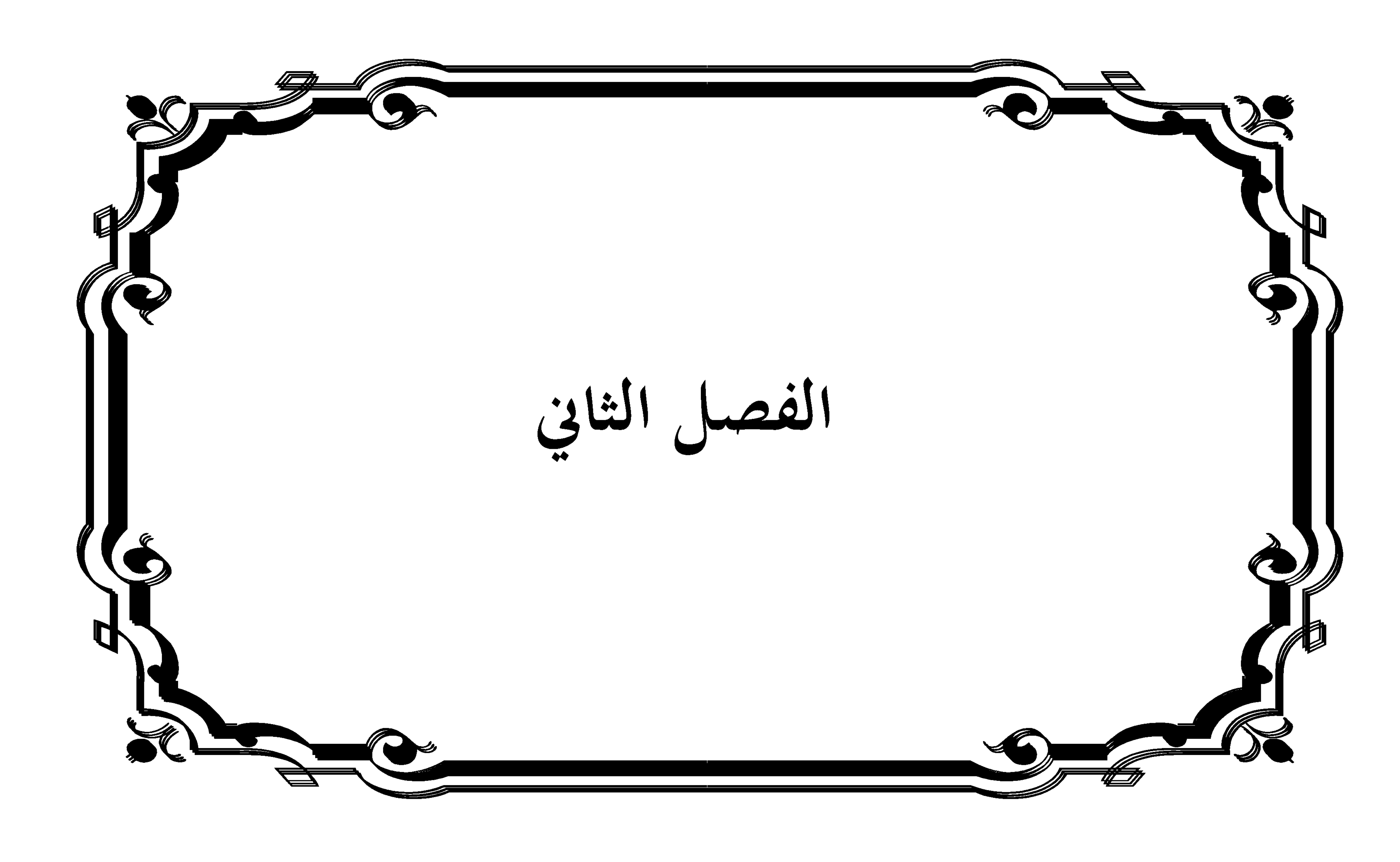
أقوله لها، هل حقا زوجك يشبهني ؟ لم تكن تنتظر هذا السؤال، استغربت، رسمت علامة استفهام كبيرة في دهشة رسمت معالمها في وجهها، قالت لي : لمَ هذا السؤال ؟ فقط لأعرف إن كان زوجك يخونك مثلما أخون زوجتي !!! شوف يا عواد، هل اطّلعت على الإحصائيات في هذا المجال ؟ لا: قلت لها باهتمام، الجزائريون يعتبرون خيانة الزوجة عدة مرات في السنة أمرا عاديا لا يدعو للقلق، بينما خيانة الزوجة لزوجها أمرٌ في غاية الفظاعة والشؤم واللؤم وهي سبب لكل مصائب العالم، أهم شيء في هذا أن الزوج يعود إلى زوجته ويكفّر عن ذنوبه ويشتري لها هدايا وحليّاً ذهبية جميلة ويدعوها إلى مأدبة غذاء فاخرة، ويعود إلى سريره المعتاد مطمئن البال رغم أن لا شيء يجذبه إلى هذا، كل الذين أعرفهم من الرجال يلعبون هذا الدور، أعرف مدراء ومعلمين وموظفين وأطباء وممرضين اتخذوا عاشقات لهم، نحن لا نهتم بهذا ما دام الرجل يعود إلى زوجته، قاطعتها وهل زوجك يخونك ؟ ضحكت ضحكة برزت فيها أسنانها الجميلة، لم أكن أعرف أن أسنانها بهذا الجمال الآخاذ، لم تجبني عن سؤالي، ربما وهزت رأسها، لا شيء مؤكد، هو يعمل في حقل بترول ولا أراه لمدة عدة شهور ولا يمكنني الحكم عليه. وهل تظنين أنني أخون زوجتي ؟ لا بالطبع أنت ملاك، أنت أطهر إنسان رأيته في حياتي، قالت بتهكم وهي تهز رأسها، أريد أن أسرّ لك سرا لا يعلمه أحد، انتبهتُ لها انتباها شديدا وأنا أصغي إليها إصغاءً بعين العقل والقلب وشعرتُ باقتراب نهايتي، يجب أن تعرف أن الطبيبة البيطرية الآنسة وردية صديقتي المقربة، يجب أن تعرف هذا ! أحسست أن النهار استحال إلى ظلام، تبكمتُ، أطرقتُ للحظة وانصرفت من أمامها، فعرفت للتوّ أن هذه المرأة تشكّل خطرا ماحقا عليّ. خصوصياتي أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الانتهاك، مشيت لعدة

خطوات قبل أن تناديني، عواد ! نسيت أن أخبرك شيئا، رجعت إليها كخروف وديع، مطأطأ الرأس، نعم يا خديجة، خير إن شاء الله، لا تنس أنني أقنعت المدير ليعطيك إجازة لأن السبب الذي وضعته في طلبك ينقصه مبرر، وثيقة ما، الأسباب الشخصية يجب أن تشخص، شكرتها وانصرفت منكسر الخاطر، والصداع في رأسي. علقت كلمة " الأسباب الشخصية يجب أن تشخص" في رأسي ، لكن عبد الهادي سائق الكلوندستان لم يشخص أسبابه ، أبدى اهتمامه بي دون سبب واضح على الأقل بالنسبة لي، أما أسبابه الشخصية فلها ما يبررها، تماما مثلما فعلت معي وردية ولها كل الحق فما أبدته من ردة فعل عنيفة، لو كنت في مكان آخر لكان الأمر أكثر خطورة عليّ .

خرجت إلى الشارع وأنا ألملم أغراضي، وثائقي، أتفقد جيوبي، كأنني نسيت شيئا ما، لا شيء سوى الهوس وطغيان المكان الذي ننتمي إليه، لا يريدنا أن نبتعد عنه أو ننفك عنه، قلتُ في نفسي مجرد ثلاثة أيام وأعود يعني سأستفيد من يوم الثلاثاء إلى يوم السبت المقبل، خمسة أيام كاملة، سأحقق في أمر عبد الهادي "مول الكلوندستان "، سوف أمضي قدما لأعرف هذا الشخص الذي أصبح يؤرقني، انحدرت مع الشارع الطويل وبساتين الزيتون على يميني، كانت الساعة تشير إلى الرابعة مساءً، بضعة أشخاص يخترقون سياج المزرعة من السكارى للبحث عن مكان لهم تحت أشجار الزيتون، منظر ألفته منذ مدة طويلة، نفس التوقيت الذي ينزل فيه بعض الشباب والكهول المدمنين على الخمر، يبحثون عن راحتهم الأبدية لكن تلك الراحة لن تدوم طويلا، مجرد ساعات قليلة، ما أن يصحو حتى يجد نفسه وجها لوجه مع الواقع المرير، الصعب، الخالي من كل ديكور يغطي به سوأة الأشخاص، أنا أكتفي ببعض البيرات في مكان بعيد حتى

لا يكتشف أمري، بعدها أضع رذاذاً من العطر على ثيابي حتى لا يكتشف أفراد عائلتي وأتعمد أن أنام في غرفة منفردة لحجة من الحجج التي أختلقها، رغم أن زوجتي اكتشفت روائح كريهة في قميصي أكثر من مرة، ولحسن الحظ اعتبرتْ الأمر عرضيا لأنني أركب الحافلات وأخالط عشرات الأشخاص طوال النهار.

على الأقل، ما أقوم به في الأيام الثلاثة القادمة سيرفع الحجاب عن دوافع سي عبد الهادي، أو على الأقل أستطيع أن أطلع على سرّ هذا الشخص الذي بيني وبينه أمور مشتركة، في يدي الآن سند التفرغ من ثلاثة أيام، أحاول أن أتخلص من هذا الأرق .



الفصل الثاني

مجموعة أسماء تظهر لي تباعا في ذهني، **ممكن** أن يرشدني أحدهم إلى عبد الهادي سائق الكلونديستان، لأجل الحصول على بعض المعلومات المفيدة التي تخص شخصه وتاريخه، يبدو أن الأمر فيه بعض الطرافة وأنا شخصيا أتحاشى الناس ولا أخالطهم ومنعزل عنهم، **مما** صنع مني إنسانا ساذجا هكذا أعتقد، أعيش ببعد واحد مما جعل حياتي ضجرة ومملة للغاية، يسعدني أن أكون صديقا لعبد الهادي وأربط علاقتي به وأستفيد من تجارب الناس ومعارفهم، ينقصني ذلك المرح والمشاركة الاجتماعية لأكون شخصا مقبولا اجتماعيا وشخصيا، لا أفكرّ الآن في العزلة والاعتكاف في البيت ولن أكون شبيها لنفسي.

اتصلت بعمي الجيلالي، ذلك الرجل العجوز الوديع، الطيب، عمل معنا عدة سنين قبل أن يحصل على التقاعد، هذا الرجل ذو الثقافة الفرنسية، وهو آخر الموظفين الذين أحتفظ بذكراهم الجميلة، ابن هذه البلدة الصغيرة، رغم بلوغه أكثر من خمس وسبعين سنة وذاكرته لا تزال حية، يتذكر سنوات الاستعمار الفرنسي، ويعرف الأهالي معرفة جيدة، ويحضر أفراحهم ويشاركهم أحزانهم، هو جزء من الشبكة المعقدة من العلاقات، ويحفظ تاريخ بلديته بتفاصيلها، اتصلتُ به وطلبت منه موعدا في المقهى المجاور لبيته، في مقهى بن عيسى، لم يتردد في قبول دعوتي وتركنا الحديث لليوم التالي .

في العاشرة صباحا، حجزت مكانا في شرفة مقهى بن عيسى، طلبت قهوة وانتظرت، حملت جريدة يومية تصفحت أوراقها بدون اهتمام كبير، طويت الجريدة

وكل مرة أنظر إلى الساعة، إلى أن ظهر عمي الجيلالي بقامته الطويلة وشعره، بقي الشائب محتفظا بكثافته، سلّم عليّ وجلس إلى جانبي، بدأ يتحدث بانسيابية عن سنوات عمله في القسم الفرعي بعد انتقاله من مركز التكوين الفلاحي الوحيد الموجود في المنطقة الذي تمّ حلّه في نهاية الثمانينيات، مقر المركز الفلاحي كان قبل الاستقلال مقر لاصاص الاستعماري، كنتُ متحرجا من أن أسأله سؤالا مباشرا عن عبد الهادي، لكن أرجأت الأمر حتى ينهي حديثه عن الوضع الحالي ببلديته وظاهرة النزوح الريفي والمتغيرات التي شهدتها المنطقة بعد العشرية السوداء وأسلوب الحياة الذي تغيّر كثيرا، أستدرك عمي الجيلالي نفسه وسألني عن سبب هذا اللقاء ؟ قلتُ له عمي الجيلالي، هل تعرف عبد الهادي صاحب سيارة الأجرة ؟ من هو عبد الهادي هذا ؟ رجل خمسيني، عريض الجبهة، مكتنز الوجه، فيه ندبة بارزة على جبهته، له سيارة رمادية من نوع 504 ، يقف دوما عند مفترق الطرق، آه عرفته، قال بصوت مرتفع قليلا، نعم أعرفه، هذا الإنسان ليس من سكان المطمر، وهو من الوافدين على المنطقة في سنوات 2004-2005، يقال إنه من منطقة سيدي خطاب ولا نعرف عنه شيئا آخر. لمَ هذا السؤال يا عواد، أظن أنه تقدم لكم لأجل مصاهرة أو شيء ما من هذا القبيل ؟ لا ليس كذلك . أبدى نوعاً من الاهتمام بي ويتكرم على بحملي في سيارته كل مرة يصادفني في الطريق، وهو يعرفني جيدا، باسمي ولقبي ووظيفتي . كان يتأمل كلامي جيدا، وهل يستدعي هذا كل ذلك الاهتمام ! قالها بصراحة دون مواراة، مما أحرجني ووضعني في وضع لا يحسد عليه، عمي الجيلالي، أن بينه وبيني قواسم مشتركة، ربما موظف، قاطعني عمي الجيلالي : ممكن هناك شيء مهمّ يبحث عنه وأنت قطعة مهمة في ذلك الشيء، من يدري ؟ ثم استمر في حديثه، الحلاقون وأصحاب

سيارات الأجرة يعرفون كل شيء، وفوق ذلك هم فضوليون أكثر من اللازم، يستقون المعلومات من زبائنهم باستمرار. ثم سألني عن خديجة، كيف هي خديجة ؟ أما زالت متعلقة بك ؟ قيل عنها إنها تزوجت من أحد العمال الذين يعملون بالجنوب، بالصحراء، نعم تزوجت من ذلك الرجل الذي لا يأتي إليها إلا نادرا، هو متزوج في مكان آخر وخديجة هي زوجته الثانية على ما أظن، قال لي وهو يبتسم، إنها كانت متعلقة بك وتزوجت بهذا الرجل أنتقاما منك يا عواد، أعرف أن الزواج نصيب وقد خاب ظنها فيك. كنت أستمع إلى عمي الجيلالي وهو يذكرني بعلاقتي البائسة مع خديجة، عمي الجيلالي، هناك أسباب جعلتني أبتعد عنها، إنها لا تروق لي، إنها امرأة نكدية، قد تسبب لي مشاكل، لا تحصى، وتكويني النفسي والعقلي يختلف عنها جذريا. ضحك عمي الجيلالي، كان من الممكن أن تستمتع بها مجانا ولكنك أعرف أنك حريص في علاقتك. لا يهم ربما كان الأمر فيه خير. شعرت أن اللقاء مع عمي الجيلالي شارف على نهايته، اتّخذ الحديث منحى أوطأ من ذي قبل، دفعت ثمن القهوة واستأذنته للقاء آخر، نزلتُ إلى الشارع وبعض الأفكار تجول في خاطري، عن كوني سبباً لتعاسة خديجة التي كانت تكافح من أجل افتكاك قبلة مني، فلم تتمكن لاعتبارات شخصية واهية، خديجة تزوجت زواجا تعيسا من زوج أكلته رمال الصحراء وافترسته الوحدة والإدمان على دور الدعارة المنتشرة بالقرب من قاعدة الحياة بالجنوب، وهو اليوم بين فكي فتاة عشرينية لم يتمكن من الاستقرار بها، نظرا للعروض القوية المقدمة من الرجال الآخرين، فالجنس في الجنوب يخضع لسوق العرض، سلعة مثل كل السلع، قانون المزادات، من يدفع أكثر، وغالبا هؤلاء العمال من يتخذ زوجة في الشمال بمنأى عن المناطق البترولية والصناعية لأجل إنجاب أبناء، يكبرون في رعاية

أمهم ولا يعرفون آبائهم إلا في فترات مستقطعة، صورته وملامحه تبقى ضبابية، أحيانا رمادية أو غير واضحة تماما، ليحصل أن يعامل الأبناء أباءهم كأشخاص غرباء أو مجرد أزواج أمهاتهم، فالأب عندما يأتي من الجنوب يتعمد الاحتفاء بأبنائه، يشتري لهم كل شيء، يأخذهم في رحلات استجمامية للتعويض عن النقص الفادح في الأبوة، يظهر عواطفه الجياشة، تكاد تكون كاسحة، ما يلبث أن ينسى كل شيء والأبناء ينسون أباءهم وقد ألفوا أغلب فترات حياتهم بدون أب، تماما مثل قنوات المياه التي تسقي البساتين، تأتي دفعة واحدة، تسقي البساتين العطشى في عدة أيام ثم تنقطع لموسم كامل، لكن البساتين تبقى دائما بحاجة إلى المياه بإستمرار، كانت خديجة تقص قصة زوجها وقصة عمال الجنوب وهي لم تره منذ فترة طويلة، أتذكر أنها كانت تتنهد وقد تملكها الحزن، نبرة صوتها حفرت فيّ عميقا، يأتي زوجها لأيام معدودة ثم ينصرف كضيف أدى واجب الضيافة بامتياز، قالت لي خديجة إنها بعد مغادرته، تعود إلى معانقة الفراغ، تستهلك بقايا ليال موحشة بالندم ونصيبها الحياتي الذي لم يكتمل في أحد وجوهه، يرحل زوجها فتنطفيء تلك الشمعة التي أضاءت أياماً معدودة محسوبة على توقيت محدد، يخيّم السكون على روحها، سكون بإيقاع حزين رتيب طويل، تتفادى أن تعود إلى سريرها الموحش الذي يثير ذكريات إلى حد البكاء والنحيب، تغلق أبواب بيتها تحمل أغراضها وتذهب لتقيم عند والدتها طويلا .

وصلت إلى نهاية الشارع الطويل الذي يتقاطع مع طريق العودة الاعتيادي، فتفاديته إلى شارع جانبي آخر، حتى أشعر أنني لستُ في الخدمة، وأنني في عطلة مؤقتة وبعيدا عن مكتبي الذي لم ينفك عني إلا بصعوبة، أسير في الشارع الجانبي وحركة الناس من حولي لا تنقطع وقد أحسستُ بالأسى أنني لا أعرف هؤلاء المارة

رغم مكوثي لأكثر من أربع وعشرين سنة بالتمام، أتعرف فقط على أولئك الذين يقيمون في شارع أربعمائة وعشرة أمتار، نادرا ما أسير في الشوارع الأخرى بسبب اعتقادي ألاّ مبرر لارتياد المناطق الأخرى في المدينة، أعترف أنني أجهل الكثير عن هذه المدينة الهادئة، تحسست الهاتف في جيبي وأردت الاتصال بخديجة لأسألها عن شيء ما، فقط لأسمع صوتها، بحثت عن سبب ما، لم أجد ما أقوله لها، ترددت وأعدت الهاتف إلى مكانه، وصلت إلى نقطة توقف الحافلة، انتظرت قليلا وقد نسيت ما أسرّه لي زميلي وصديقي عمي الجيلالي عن عبد الهادي الذي لا يعرفه جيدا، أنه وافد جديد على المنطقة، لا يُعرف له أسرة ولا أولاد ولا زوجة، يجب أن أسأل أحد جيرانه، لترتيب صورة ما، كل شخص له تاريخ وبداية ونهاية، بالتأكيد أن صاحبنا له تاريخ وبداية وحياة معقدة من يدري ؟ تختلف جذريا عن حياة البساطة التي عشتها، عن ذلك الخط المستقيم الذي أرتديته لنفسي. لكن الحياة الحقيقية مجموعة كبيرة من التعرجات والانعطافات والتضاريس الصعبة والمرتفعات والوهاد، الحياة ليست في بساطة جناح فراشة، أكيد، هذا ما أوحت به الفتاة الجامحة وردية، علمتني ألاّ آخذ الحياة ببساطتها وبوضعية واحدة، هي نفس الوضعية التي أمارسها مع زوجتي، قالت لي: يجب أن تعلم أن هناك مئات الوضعيات الجنسية و كل وضعية هي وضعية جديدة للروح، يتجدد من خلالها كيمياء الحب وكيمياء الجسد وتغني نظرتك للحياة، صارحتها أنني لا أعرف هذه الأشياء، أجهل أن هذه الوضعيات تمارس في سرير الزوجية، قالت لي وهي تبتسم، كم أنتَ ممل، هذه الأشياء التي أحدثك عنها هي توابل الحياة، مؤسف أنك لم تتلق تعليما جنسيا كافيا، أنتَ تضيّع وقتي بدون جدوى، كنتُ مندهشا لجرأتها، قلت لها كيف يمكنني تدارك هذه الأمور سيدتي؟ اقرأ كاماسوترا أو اذهب

إلى أقرب بيت دعارة لتتعلم فنون الحياة ! لم استسغ ما قالته لي وهي تتحرك أمامي شبه عارية، كنت أتأمل جسدها الأبيض الرخامي يتهادى بتناغم مع حركة تقوم في مجيئها ورواحها في أرجاء البيت، منصرفة لشؤونها بعد فسحة قضيتها معها خارج البيت، أنا أنتظر أن تتوج هذه الليلة معها بمضاجعة هذا الجسد الذي لم أره من قبل حقا وحقيقيا ومجسدا أمامي في انحداراته وتقوسه وتكوره وفي شبقيته، أحسست بنار الشهوة تلتهمني بشراهة وأنا جالس في أريكة الصالون أنتظر لحظة الحب الرائعة.

اخترقت شارعا آخرا، وانعطفت مجددا لأجد نفسي أمام عمارة وردية مباشرة وعلى بعد عدة أمتار منه، موقف الحافلة الاعتيادي، مشيت وأنا أرفع رأسي تجاه تلك الشقة التي شهدت ليلة مثيرة لا أنساها ما حييت، تعلمت فيها أول وأكبرالدروس، لا أغضب من وردية، أنا تلميذها الذي يجب أن يتجلد ويصبر ويكابد ويتحمل جنونها وشبقها، أعترف أن تدريبها لي لا يخلو من اللذة والألم .

انتظرت الحافلة طويلا، قبل أن تظهر الحافلة الزرقاء، لم أكن معتادا الركوب في هذا التوقيت، وقد انتصف النهار، وازدادت حركة الأشخاص والسيارات من حولي، امتطيت الحافلة الزرقاء لأغادر هذه المدينة ولم أحصل على ما أردته من معلومات عن عبد الهادي .

رغم أنني لم أحصل على شيء ذي أهمية، إلا أنني سوف أعود إلى المطمر، لأسأل أي أحد يمكن أن يدلني على شيء ما، لستُ في عجلة من أمري وستكون تجربة إضافية في مساري الحياتي، سوف ألجأ إلى أي شخص يظهر أنه يستطيع أن يمدني بمعلومات كافية عن المدعو عبد الهادي، حتى ولو اصطدمت

بالرفض وشح المعلومات، خاصة وأنني لستُ ماهرا بما يكفي في اصطياد الأخبار واستخلاصها. مواصفاتي الشخصية تقف عائقا في وجه الحقيقة، خلال مساري المهني لأكثر من عشرين سنة، لم أتمكن من تبين نوايا الأشخاص و لا المستجدات إلا بعد حدوثها الفعلي، بينما هناك زملاء يستطلعون الأمر بسهولة ويتمكنون من معرفة الأشياء قبل وقوعها، يختبرون النفوس والعقول والأقوال والكلمات، وأنا أبقى في وضع لا يحسد عليه، كانت تصلني تنبيهات من الزملاء والأصدقاء أنّ هناك أرواحاً شريرة تريد إيذائي بشكل من الأشكال ورغم ذلك، لا أجيد قراءة الأشياء بشكل صحيح، كانت تحاك مؤامرات فوق رأسي وأنا لا أدري بها، كانت الوحيدة التي تتصدى لهذه المؤامرات زميلتي خديجة، لكن لم أكن أعير أي اهتمام لما يمررونه من خطط، منذ أربع وعشرين سنة لم أترق في سلّم وظيفتي، ملفي الوظيفي خالٍ تماما من أي عقوبة أو إحالة على مجلس الانضباط. ورغم ذلك فالذين هم أقل مني تجربة ودرجة علمية وسنّا يحصلون على مزايا وظيفية وترقيات، تقلدوا مناصب المسؤولية وحصلوا على مزايا اجتماعية ومهنية، آخر مرة كنتُ مرشحا لتربص مهني في أروبا، أُجهض ترشحي وفُوّتت عليّ الفرصة باستبدالي بآخر له سيرة ذاتية مشبوهة، بل إنني تعرضت لمؤامرات خسيسة داخل القسم، كانت كل مرة تنبهني خديجة إلى شيء ما يحدث.

سأحاول وسوف أتدرب على استقصاء الأشياء والأشخاص والفضاءات لكي أحصل على مزيد من المعلومات أرفع بها درجة تأهبي لهذه الحياة، كنت ألملم أغراضي في البيت حين رنّ هاتفي، عمي الجيلالي طلبني إذا كان بإمكاني القدوم إليه لمعلومات جديدة عن عبد الهادي، فطلبت أن آتي إليه في اليوم الموالي.

صباحا توجهتُ إلى مدينة المطمر، مدينتي المعتادة ودخلتُ المقهى، رفعت هاتفي وأشعرته بوصولي في المكان المحدّد، بعد ربع ساعة دخل عليّ عمي الجيلالي أزاح كرسياً إلى جانبي وراح يتكلم عن مواقف حدثت له في البلدية بشيء من الغضب والسخط، كنت أستمع إليه باهتمام زائد عن سوء الخدمات وسوء التدبير الإداري وحماقتهم، ثم استدرك الأمر وقال لي: لقد حصلتُ على معلومات عن صاحبك عبد الهادي، هذا الرجل بالإضافة إلى أنه وافد جديد لم يتعد بضع سنين في هذه المدينة، فهو وافد من إحدى مناطق سيدي خطاب، أبوه تم تصفيته من طرف "الفلاقة" إبان الثورة التحريرية، وكان متعاونا مع الاستعمار وعميلا استخباراتيا مع لاصاص في نفس المنطقة، مما أدى إلى إقدام السلطات العسكرية على الانتقام من الأهالي، متزوج وليس له أبناء، عمل في إحدى الشركات بمنطقة أرزيو، ثم حصل على تقاعد مريح، وهو الآن يمتهن سياقة سيارة كلونديستان. سألت عنه أحد معارفي كان يعمل معه في الشركة وهو يعرفه جيدا وكان يتقاسم معه مكان الإقامة. اندهشت لحجم المعلومات المهمة التي أدلى بها صديقي بهذه السهولة، آه كم أنتَ رائع صديقي ! تأتي بها ولو كانت في عين الطير. ابتسم عمي الجيلالي راضيا عن نفسه مضيفا: لولا أنك عزيز عليّ وصديق قديم ما قلت لك شيئا مهمّا، لكن عمي الجيلالي ما سرّ اهتمام هذا الرجل بشخصي، ربما تكون عندك إجابة مقنعة، قال عمي الجيلالي وهو غير متيقن من إجابته، مقطبا حاجبه ربما يوجد شيئ ما في محيطك له أهمية قصوى بالنسبة إليه، أو ربما فاعل خير، من يدري ؟ النفوس سراديب مغلقة يصعب كشف كنهها، ولكن يمكن معرفة مقصوده في أول لقاء أو بعد لقاءات متعددة . تيقنت أنه لا مناص من اللقاء بعبد الهادي صاحب الكلونديستان ومعرفة ما يصبو إليه. سألني عمي

الجيلالي عن أحوالي ؟ قلت له كما تعرفني منعزل عن الجميع والمؤامرات تحاك على رأسي وأنا لا أحيد قيد أنملة عن مساري بين موقف الحافلة ومقر القسم، أذرع تلك المسافة المقدرة بأربعمائة وعشرة أمتار، ولا أعرف شيئا خارج ذلك المسار. ضحك عمي الجيلالي و هو يربت على كتفي، أنت صوفي زاهد في الحياة ومواطن صالح، يا عواد ليس كل الناس مثلك، حب الناس للحياة تجعلهم يقدمون على كل شيء، لا يهابون، لا يتقهقرون أمام أي شيء، يربطون علاقات مع الأشخاص، يتبادلون المصالح، الناس يشعلون الحروب من أجل مصالحهم، الولاة والوزراء، المدراء التنفيديون، أصحاب المناصب النافذة هل يحصلون على هذه المراكز لولا شبكة علاقاتهم المعقدة والمركبة والتي لا تخلو من الإثارة والسعي الدؤوب في العواصم، يا صديقي، الذي يركن إلى القيلولة لا يحصل على شيء إطلاقا، قلت لعمي الجيلالي، كنتُ أحسب أن الكفاءة هي الفيصل في تقلد مناصب الدولة ؟ لا يا صديقي عواد لم تكن الكفاءة يوما هي السبب، هناك ما يسمى "بالولاء" والعلاقات العميقة بين الأشخاص وقليل من السياسة والمصالح، هذا هو بلدنا، اقتسام الكعكة بين الأصدقاء والأصحاب. طلبت منه الإذن بالانصراف، شاكرا على المعلومات القيمة التي قدمها لي، قال لي أنا تحت أمرك صديقي، ثم قال لي إلى أين ذاهب الآن ؟ قلت له إلى القيلولة ! فانفجر ضاحكاً، انصرفت من المقهى وأنا مطمئن للمعلومات التي حصلت عليها بجهد قليل ولم أخسر شيئا.

كانت تتنازعني بعض الأسئلة في رأسي وأنا مستلقى على أريكة، ما شأني بعبد الهادي هذا، إذا كان ابن حركي أو مجاهد أو ابن شهيد ؟ من الذي يخوّل لي سلطة حشر أنفي في حياته ؟ أليس تدخلي في الحياة الخاصة للأفراد استفزازاً

ومشاكسة مجانية وقرفاً ولا طائل من ورائه ؟ استهلكت يومين بغير جدوى، معلومات لا تؤدي بي إلى أي طريق، قفزت من مكاني وقد انتابتني أسئلة الخيبة والتردد في مواصلة البحث عن حياة شخص لا تربطني به أي علاقة أو مصلحة. قلت مخاطبا نفسي وكأن صوتا آخر يريدني أن أتخلى عن هذا الأمر. سأستنفذ اليوم الثالث وبعدها لا يكون هناك مبرر للمتابعة والبحث .

خرجت باكرا من البيت على غير العادة، في غير التوقيت المحدد، كانت ساعة الحائط تشير إلى الخامسة والنصف، دخلت المقهى المحاذي لمحطة المسافرين، كنت محاطا بالغرباء مرتبطين بحقائبهم أكثر من ارتباطهم بالمكان والزمن، كنت ألاحظ ذلك وأنا على مقربة من الأشخاص الغرباء المسافرين إلى أرجاء الأرض، يشدون بقوة برزمهم وحقائبهم، يبدو أنهم متحررون من كل شيء عكس ارتباطي بالوظيفة وبالزمن والمكان والفضاء والصباحات والمساءات وأوراق الحضور والغياب، أحسدهم لأنهم غير مرتبطين بمسافة أربعمائة وعشرة أمتار. وضع القهوجي فنجان قهوة على طاولتي، ارتشفت قهوتي لأتذوق نكهة السفر الطويل الذي لم يحدث لي أبدا. خرجت وركبت حافلة المسافات القصيرة وبعد ربع ساعة وصلت إلى مدينة المطمر، نزلت في المكان المعتاد. لا أعرف وجهتي ولا مع من سألتقي. وجودي اليوم هو استنفاذ آخر يوم من الإجازة، لا يهم إن كان هذا يؤدي إلى معرفة شيء ما أو أعود إلى البيت خالي الوفاض مثلما قضيت سنين حياتي بدون جدوى، وجودي أضحى بدون معنى . كنت أسير في الشارع الرئيسي للمدينة مطأطأ الرأس، غارقاً في هواجسي وتتضاربني مشاعر متناقضة، أشعر أن الحماسة بدأت تخفت فيّ تدريجيا، تكاد تنطفيء، توجهت إلى حديقة البلدية وجلست على أحد مقاعدها الحجرية وأنا لا أفكر في شيء سوى العودة

إلى البيت، ولن أفكّر في مسألة عبد الهادي مجددا. توجّهت بنظراتي إلى مرتادي الشارع الرئيسي وأنا اتتبع خطواتهم وحركاتهم، حتى اقترب مني رجل عجوز يضع نظارات ثخينة في العقد السابع من عمره ببيري أسود، أنيق، يحمل جريدة "لوكوتيديان " وجلس إلى جانبي، وضع نظارته وانهمك في تصفح جريدته، قلت في نفسي إن هذه المخلوقات في طريقها إلى الانقراض، الذين يحافظون على مظهرهم الأوروبي في هذه المدينة قليل جدا، هذه المدينة الصغيرة كانت في وقت من الأوقات أروبية بامتياز، وهذه الشوارع الجميلة وهذا العمران من الطراز الإسباني والفرنسي والمالطي رغم أنني لا أعرف الفروق بين الطرز العمرانية، إلا أن أحد الأصدقاء المعماريين أشار إلى تلك الفروق وكان يسمي أشياء لا أعرفها، لكن هناك فروقات واضحة و بيّنة ولكن لارتباطي بمجال عملي الزراعي لم اهتم كثيرا لشروحاته، كان من الأفضل وأنا أتجول في هذه المدينة أن أنتبه إلى الأبواب والأقواس والشرفات والسطوح والواجهات التي تمثل أساليب معمارية متفردة. الرجل بجانبي من مثقفي المدينة لا يزال يحمل شحنة الثقافة الفرنسية على ما يظهر من زيّه وأناقته، سوف يترك فراغا ليملأه أصحاب الزي الأفغاني والخليجي، لاحظت أن الكثير من المارة يلبسون الزي البدوي الخليجي أو الأفغاني أو جلابيب سوداء لم تكن سوى مظاهر استثنائية، لتصبح أكثر حضورا، استأنست للرفيق الذي يقاسمني المقعد الحجري كعصفور جميل نادرا ما نراه في مدننا، هم آخر جيل تتلمذ على الفرنسيين ثقافة وأدبا ومدنية في مقابل أجيال أخرى ممسوخة بفعل ثقافة لا تتصالح مع نفسها، وتعلن الخراب في نفوسنا، ثقافة ميتافيزيقية لاتعترف إلا بالعنف كسبيل لبسط سيطرتها، بينما أنا غارق في تأملاتي حتى طوى جريدته، أشعل سيجارته ونفث عميقا في الهواء، قال لي موجها حديثه لي دون أن ينظر إلي، جو

صيفي يلوح في الأفق ! وهذا يعود إلى احتباس الأمطار قبل نهاية شهر مارس، قلت له نعم، أمطار السنة لم تكن كافية، نقص كبير غير كاف لري مساحات المحاصيل الكبرى وري بساتين الفاكهة، بلغت أقل من 300 ملم، قال كيف عرفت هذا ؟ أنا أعمل تقني بالقسم الفلاحي وأدير محطة صغيرة للأحوال الجوية، أسجّل كل تساقطات السنة، متشرف بك صديقي، الاسم الكريم ؟ عواد، متشرف بك، أنا ميلود آغا ،متقاعد ، مهاجر سابق ،عدتُ إلى هذا البلد لأجل قضاء نهاية حياتي بين أهلي ، لكن وجدت أن هذا العالم قد تغيّر كثيرا، أغلب أصدقاء الطفولة غيّروا مكان إقامتهم أو رحلوا إلى ربّهم، أصبحت غريبا يا عواد، لولا بعض الأصدقاء من الشيوخ لتعذر عليّ البقاء هنا أكثر من عدة أيام، أشعر أنني لا أنتمي للمكان، قلت له ربما طول إقامتك بالمهجر هو الذي جعلك تحسّ بالإحساس ذاته. نعم يا صديقي، الأمر في غاية التعاسة، استنفذت زهرة عمري هناك وكنت خلالها أحنّ إلى هذه الأرض ولكن ما أن وصلت، حتى شعرت أنني غريب عن هذه المدينة التي ولدت فيها ونشأت فيها وعشت فيها معظم أطوار شبابي، كنت معلم للغة الفرنسية هنا في مدرسة سانت أوجين سنة 1963 تحديدا، عندما نشب بيني وبين أحد مسؤولي الحزب نزاع حاد، قمت على إثرها بضربه ضربا مبرحا في فناء المدرسة، في ذلك الوقت، تم طردي من المدرسة، أفراد العرش الذي ينتمي إليه مسؤول الحزب حاولوا قتلي إلى أن هربت إلى فرنسا لأنجو بجلدي، أتعلمْ أن هذا المسؤول الحزبي كان أميا وجاهلا ولا يعرف كتابة اسمه، يملي عليّ أوامره pauvre Algérie قالها بحسرة شديدة واغرورقت عيناه بالدموع، مسح دموعه وغلب عليه البكاء، أطرقت وأنا أرى هذه المأساة التاريخية تعود بكل تفاصيلها، قال لي ميلود آغا وهو متأثر جدا حتى أن صوته كان يخرج في نبرات

متغيرة من فرط الانفعال، يا عواد، أتعرف أن هذا المسؤول الحزبي، فبْرك حكاية تعاوني مع الاستعمار وخيانتي للوطن ولعهد الشهداء، فأصبحت حركيا رغما عني، أتعلمْ أنّ هؤلاء هم الذين وضعوا التاريخ وزيّفوه، أتعلمْ أنني هاجرت إلى فرنسا رغما عني، تركت أهلي وطفولتي وتاريخي وأصدقائي لأجد نفسي في مدن مصنعة مقولبة لا رائحة لها، لا نكهة لها. تركنا من ورائنا الذئاب ينهشون بقايا الوطن، رفع الجريدة وأشار إليها انظر للفضائح يا عواد، هذه الفضائح ليست سوى من أولئك الذين يتدثرون بالشرعية الثورية، هم الذين نكّلوا بالوطن و بالتاريخ ونكّلوا بالإنسان، الحمد لله كنت مدرسا لعدة سنوات مع جماعة معلمين فرنسيين، هؤلاء رحلوا وبقيت وحدي مع أبناء وطني رغم الإمكانيات الضعيفة والصعبة والقاسية، كنا ندرّس الأطفال، كنا نحن الأباء ونحن المعلمين ونحن الأهل، إلى أن تعدى هذا المسؤول الحزبي حدوده، الشيء الذي لا أندم عليه أنني ضربته ضربا مبرحا أمام تلامذة المدرسة وأمام المعلمين وقد هبّت قبيلته عن بكرة أبيها تبحث عني لتثأر له، هيهات، كنت قد وصلت إلى ميناء مستغانم، فررت بجلدي يا ولدي وتركت كل شيء ورائي حتى مسكني حوّل إلى قسمة الحزب، يرتاع فيه الحشاشون والسكارى والانتهازيون من أمثال بيسة ولد فاطمة والقصاصبي بوعلام وغيرهما من حثالات القوم الذين تحوّلوا بفضل الاشتراكية والثورة الزراعية إلى أسياد ! كنت أستمع إليه بانتباه شديد، كنت حريصا على الاستماع إلى كل كلمة يتفوّه بها، كنت أشعر بصدقه، كان يتحدث وهو يفتح جراحه واحدا تلو الآخر، شعرت بالآسى والحزن وأنا أستمع لقصة هذا الرجل الحزينة، نظر الرجل إلى ساعته ورحل بصمت، بخطوات ثقيلة وقد أصبحت أشعة الشمس لا يُحتمل الجلوس تحتها، بعد البرودة الصباحية، نهضت ومشيت قليلا وأنا أفكّر في الرجل

ذي البيري الأسود، حتى سمعت أحدهم يناديني، استدرت لأجد عمي الجيلالي في الجانب الآخر للشارع، يلوّح بيده، عواد إلى أين ؟ عندما رأيته ابتسمتُ، اجتزت الطريق المزدحم بالسيارات وسلّمت عليه، دخلت المقهى وجلست أمام طاولة في ركن المقهى، طلبت من صاحب المقهى أن يخفت من حجم صوت الستيريو الذي يذيع أغنية الراي كشرط لجلوسي في هذه المقهى، استجاب صاحب المقهى لذلك وتجاذبت مع صديقي عمي الجيلالي الحديث، سألني أين كنت اليوم هائما ؟ قلت كنت مع أحد قدماء المطمر، استمتعت بالجلوس مع ميلود آغا، حدثني عن أشياء انفطر لها قلبي، قال لي عمي الجيلالي، أنت محظوظ أنك التقيت مع نماذج بشرية غير مألوفة، أعرفه جيدا هو من السكان الأصليين لهذه المدينة، عندما كانت المدينة لا يتجاوز تعدادها خمسمائة ساكن، كان يعيش مع الأروبيين مع والديه، أبوه كان من القياد الذين عملوا مع فرنسا ولكن ميلود أغا لم يتعاون مع الاستعمار، كان إلى سنوات بعد الاستقلال يدرّس أبناءنا في مدارس الأنديجان، لم يفعل أي شيء مشين ضد الثورة، اختلف مع مسؤول الحزب الذي استفزه بذكر ماضي والده المشين فانتفض في وجهه ووجّه له لكمات في وجهه وغادر البلد نهائيا، حسبما علمناه حينئذ أن مسؤول الحزب سي محمود أراد الانتقام وتسوية حساب قديم بين الآغا الأب وسي محمود، كانت في الخمسينيات امرأة عربية جميلة من منطقة القلعة، يقال أنها ذات أصول تركية عريقة كانت تقيم هنا في المطمر، كانت ممرضة تعلمت على يد الأخوات الكاثوليكيات، عشقها سي الميلود والآغا الأب وفي النهاية تغلب الآغا الأب وتزوجها، توفيت في أوائل الستينيات، قبل الاستقلال بقليل. قلت لعمي الجيلالي لكن المأساة استمرت ! نعم استمرت دفع ثمنها الابن وباقي الأسرة . التاريخ

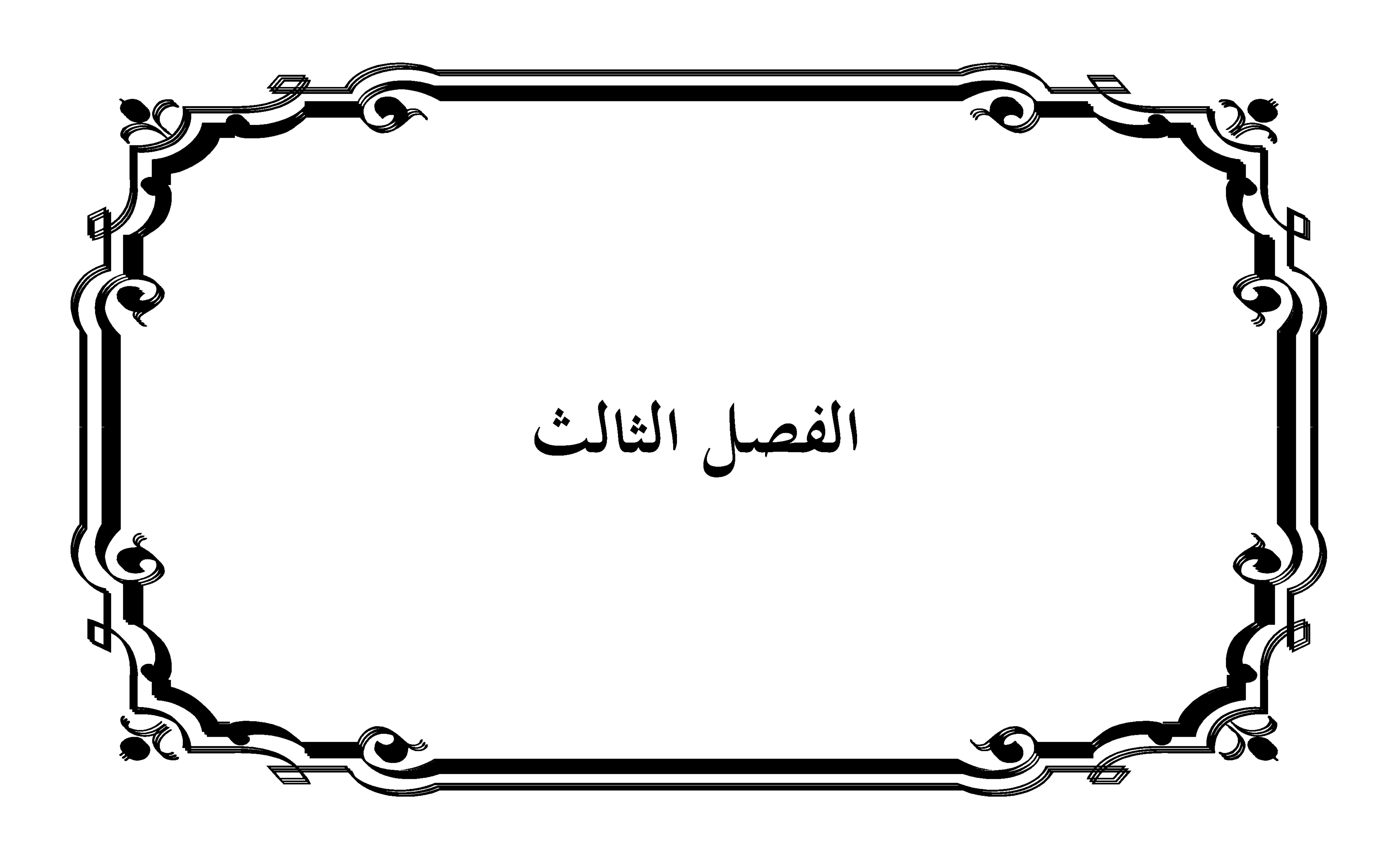
بجزئيه الذاتي والموضوعي، هو في النهاية قصة أشخاص وأحداث صنعها الأشخاص بكل ما يحمله هؤلاء الأشخاص من عواطف وأحاسيس ومشاعر وأفكار، عندما تتنازع المصالح والأشخاص والأفكارتحدث أشياء نسميها فيما بعد "تاريخ ". البعض يلتجئ إلى كتابة سيرته الذاتية، هي أيضا تاريخ من نوع ما، لا ننسى أن هناك من صنعوا التاريخ فعلا وهناك من كتبوا فعلا التاريخ لأجل تزوير الحقائق وإخفاء بعض من فضائحهم غير المشرفة، وهناك من كتبوا لكن في أغلب الحالات الذي يكتب أفضل ممن لا يكتب إطلاقا حتى ولو كتب أحدهم مذكرات سخيفة عن حياته هي أفضل في كل الأحوال من التقاعس، الفراغ قانون يخضع لأول واحد يملؤه ولو كان تافها، التاريخ عندنا ملء الفراغات، لكن يا عمي الجيلالي ما سمعته للتو عن قصة صاحبنا هي مجرد قصة تنازع على امرأة جميلة كل طرف يريد أن يضع يده عليها. يا صديقي، الجزائر بشكل من الأشكال امرأة كبيرة أو مجموعة نساء ينشب الصراع حولهن، تشن الحروب لأجلهن، chaque guerre ,il y a une histoire de cul، لم أستسغ ما قاله لي عمي الجيلالي، ولاحظ أن الفكرة لم أستسغها جيدا، أكمل شرحه بطريقة تجعل الفكرة مقبولة لديّ، شوف يا عواد، لماذا يلجأ الجنرالات عندنا والرؤساء السابقون إلى كتابة مذكرات سخيفة ؟ لأن هناك قصص نسائية لا تنتهي وكتابة مذكرات هو إعلان بشكل مختلف أنني لم أمت، يمكنني مواصلة استفزازكم إلى مالا نهاية رغم أنه بمجرد صدور سيرة حياة الشخص قد أعلن عن وفاته. يا إلهي ! لقد زلزلت كل ما قرأته ودرسته لسنوات طويلة. واصل عمي الجيلالي كلامه وهو أكثر ثقة من ذي قبل: عندما تضيق عليك السبل، لا تقل شيئا، عليك إما تفتح محلا للكرانتيكا أو كتابة مذكرات سخيفة عن حياتك، الأولى ستجعل أيامك بطعم

الكرانتيكا، يلتف حولك المشردون والفقراء والمساكين والذين هم دون مأوى والثانية تجعل عزاءك في الكذب وتضخيم الأنا، حيث تتخيل أنك ترتدي بزة سيبرمان وتنتقم من الأشرار ولا يهنأ لك بال حتى تدمرهم تدميرا وأنت تعرف في قرارة نفسك، أنك أعجز حتى من نتف شعرة من شعرات إبطك وليس الحصول على الجميلات الرائعات، لذلك الكتابة لها مفعول قوي أشبه بالغيبوبة أو مخادعة الذات لفترة، أنا مازلت أمارس هذه المهمة التي تشبه الاستمناء الروحي، لأجل أورغازم مؤقت لمكافحة الضيق المزمن، ما أن ينتهي مفعوله، أمزق تلك اليوميات البائسة، لا حيلة لي في مصارعة الجبال، تورمت عيونه إلى حد البكاء، ولم أنتبه أنه تحت تأثير السكر، شربت كثيرا اليوم عمي الجيلالي ؟ كالعادة مجرد بضعة قنينات من سان ميقال، لا أكثر.

لم أعرف أن عمي الجيلالي يكتب مذكرات حياته و سيرته، أعلم أنها ستكون مثيرة فذة لتفسير كثير من حقائق التاريخ والأرض والإنسان، لم أشأ أن أسأله المزيد عن عبد الهادي سائق الكلونديستان، أرجأت الأمر إلى لقاء أخر، أريده أن يكون صافيا مثل وجه صديقتي وردية، لا أكدر مزاجه بأسئلتي السخيفة، أعربتُ عن حبي وتقديري له، قلت له إنني أول من يقرأ مذكراته وأول من يطلع عليها .

يشبهني عمي الجيلالي في كل شيء، يكون صادقا معظم الوقت وخاصة عندما يثمل، عاطفي جدا لا يكاد يمسك دموعه عند أول موقف تراجيدي، لا يصطنع الحديث، وإذا أكثر منه ينحرف انحرافا لا يمكن تأويله، لكن في تأويله

تكمن الحقيقة في إحدى جزيئاتها، عزمت أن لا أفرط في عمي الجيلالي لأنه مدرسة حقيقية تسير على رجلين.



الفصل الثالث

استنفذت الأيام الثلاثة ويومي عطلة نهاية الأسبوع، دون تقدم يذكر في معرفة عبد الهادي، في حقيقة الأمر أنني غرقت في تفاصيل أخرى، تماما مثلما أبحث عن شيء في ركام البيت وإذا بي أكتشفت أشياء أخرى قد ضيعتها منذ زمان، أشياء بحثنا عنها في وقتها ولم نجدها أو تخلينا عنها بعد استسلام منّا، أنا على يقين أنني سأجد طريقا ما في اتجاه عبد الهادي وأنا أبحث عن شيء ما. حلقت ذقني واستعددت للعمل، نزلت بالمطمر التي لم أبرحها حتى في أيام الإجازة، وتابعت سيري في ذلك الخط الذي تابعته منذ سنين عديدة، خط أربعمائة وعشرة أمتار، أحسست أن ثياب الوظيفة المعتاد قد أرتديته اليوم بكل ما يحمله هذا الثياب من قرف، بدلة رسمية وربطة عنق وحذاء أسود ووجه متجهم وتسريحة شعر كلاسيكية جدا مفرقة على جانبين، رغم محاولات بناتي باستحداث تسريحة عصرية على طريق جنود المارينز، لم أقبل بهذه التسريحة لأنه ليس لديّ هيئة جندي أمريكي ولا غطرسته، ولا طموحه الكوني، أنا مجرد شخص موظف يعيش حياة مغرقة في القرف والرتابة و الملل، محدود الزمن والمكان، نشأت في فضاء إداري وأسري ومجتمعي أغلقته على نفسي، أشعر أن العالم الذي أراه الآن جديد عليّ ظاهرا وباطنا .

جلست إلى مكتبي المغبر، تقابلني سلّة المهملات التي لم تغب عن نظري لحظة وكأنها تنتظر تلك اللحظة لكي تبتلعني فيه، زملائي في العمل الذين فكّوا

علاقتهم بالعمل، شعروا فجأة بإنسانيتهم والقليل منهم تحوّل إلى خردة بشرية لا يمكن إصلاحها.

تقدمت مني خديجة بعد تحية صباحية وهي تبتسم، أتمنى أنك قضيت أوقات ممتعة، قلت لها إنني لم أبرح المطمر لثلاثة أيام، اندهشت وقالت: كم أنت تعيس يا عواد ! كان من الأجدر بك قضاء أيام بعيدا عن هذه المدينة حتى تستريح بتغييرك للأجواء، قلتها لها "معليش" يمكنني الاستفادة من الإجازة في بداية الصيف، سأحاول أن أقيم لأسابيع في إقامة سياحية على شاطيء البحر. ردّت علي باستخفاف لا أظنك فاعل، أنا أعرفك جيدا يا عواد، تُفضل أن تبقى في أجواء صيفية جهنمية على أن تقوم بدفع تكاليف الإقامة، ثم أستدركت شيئا ما، هل تواجدك في المطمر خلال الأيام الثلاثة الماضية كان مع وردية ؟ ! من قال لك هذا؟ قلت لها مبعدا التهمة عن نفسي، سيدتي، كانت لي أمور شخصية لا علاقة لي بوردية لا من قريب ولا من بعيد. كانت تستمع إليّ وهي تشكّ في أقوالي، لا أريد أن أقنعها ولكن صمتي كفيل بأن يثير فيها شكوكاً وفضولاً . يا امرأة لماذا تريدين معرفة كل شيء عني ؟ عفوا إذا كان هذا محرجا، يجب أن تعلم أنني لا أهضم أقاويلك، حتى لا أقول...أكاذيبك. شعرت أن المرأة تجاوزت حدودها في اللياقة، الأمر لا يخصك يا خديجة، بلهجة جافة. عفوا إن سببت لك ألما. أرادت قول شيء ما ثم أمسكت، وضعت الملفات والبريد الوارد أمامي وانصرَفتْ. بقيت للحظة أحدق فيها وهي تنصرف من أمامي أحاول أن أقرأ ما أمسكتْ عنه. قلت في نفسي حتى أخفف من غضبي، لا يهتم بك إلا الصديق، هناك موظفات معي في القسم ولا يتدخلن في شؤوني، منصرفات إلى عالمهن ويراقبن الأشياءِ والأشخاص عن بعد، يحافظن على مسافة شخصية معقولة،

كتبادل التحايا والمجاملات والسؤال عن الأولاد أو تمدرسهم والشؤون العادية اليومية. خديجة تريد شيئا ما لم أفهمه بعد ! لم أتهجم عليها إشفاقا مني على وضعيتها الزوجية والأسرية وهي تشاكسني عمدا لغضب نضج لعدة سنين وتراكم، بقدر ما تحبني فهي تكرهني، تختلط المشاعرعندها وتتناقض، تعيش لحظاتي بازدواجية، تتصرف تصرفات حمقاء نزقة، أعلم أنني جزء من ماضيها، جزء من يومياتها، من أحلامها التي لم تجد سبيلا لفرحتها، أنا تصرفت خلافا لطموحاتها، أخذت طريقا مغايرا، كانت تقول لي وجودك يشعرني بالظلم، بالقهر وأنا لا أهتم، طول حياتي لا أهتم لشيء، لا أهتم إلا لساعة المعصم، نتحايل عليها بالانتظار تارة وتارة بالضجر وتارة بالانشغال بالعمل وتارة بالجلوس في مقهى بفائض الوقت، زملائي يذهبون إلى المسجد، ينتظرون وقت صلاتيْ الظهر والعصر طويلا في المسجد. حقيقة الأمر أن التوقيت في العمل من المشاكل الكبرى المسكوت عنها في الإدارة، الموظف لمدة ثلاثين سنة أو أكثر يصارع الزمن بأعجوبة، حياته هو مجرد توقيت يجب استهلاكه بأي طريقة، بأي شكل، بأي وسيلة، يتحول إلى رهاب مزمن، ينهض من فراشه بذعر، يلبس بخفة، يركب الحافلة بقلق، ينزل بقلق، غالبا ما ينسى أشياءه وأغراضه ومفاتيح مكتبه أو هاتفه المحمول أو أحيانا مصروفه اليومي.

انشغلتُ بمعاينة الملفات بشكل روتيني، وكنت أسجّل ملاحظات قصيرة مقتضبة، متابعا عملي بشكل عادي وأنا أفكّر في زميلتي خديجة التي أنزوتْ في مكتبها لساعات طويلة، متناسيا سلوكها الصباحي معي دون أن أوليه أهمية تذكر، يوم كسائر الأيام، خديجة عبّرت عن شيء ما، دون أن تكون لها الشجاعة في إبداء ما يجول في خاطرها ، لعلها تؤجله إلى وقت لاحق، أنا أعلم أن كل

شيء له زمنه المحدد، كل شيء يأتي في حينه، سأترك فسحة من الوقت لنفسي ولن أقلق على ما لم أنجزه في قضية عبد الهادي، آه أصبح عبد الهادي قضية مؤرقة، أبحث عن حل لها، وفرة من المعلومات لأرضي بها فضولي الجامح. بلغت الرابعة موعد مغادرة العمل لحسن الحظ أمامي منحدر يساعدني على بلوغ موقف الحافلات، أنهيت ما تبقى من الملفات العالقة، قمت بتوظيبها وتصفيفها وتسجيلها في سجل خاص بها، ورفعت رسالة إلى مدير القسم كإشعار عن بعض التفاصيل الدقيقة، أنجزت عملي وهممت بالخروج، وجدت خديجة عند البوابة الخارجية تنتظر زميلاتها، تأخرتُ قليلا كعادتي، فأنا أفضل أن أسير وحدي بدلا من الثرثرة مع الزملاء بكلام فارغ، أفضل أن أعود إلى البيت بصمت، لا أحتمل أن أعود إلى أجواء العمل والوظيفة بعد أن تطأ رِجْلي البوابة الخارجية لمقر القسم.

بالقرب من المقبرة المسيحية المحاذية للمزرعة النموذجية رأيت تجمعاً كبيراً لعمال البلدية وجمهرة من مواطنين فضوليين، وعددا من سيارات الشرطة ومسؤولين محليين، على رأسهم رئيس الدائرة، يخرجون رفات الموتى من المقبرة ويضعونها داخل شاحنة مغطاة. توقفت لحظة، فرأيت عمي الجيلالي يتابع المشهد، اقتربت منه وسألته عن هذه العملية التي لا تخطر على بال أحد، قال لي بأسى يا صديقي عواد، حتى الموتى لم يسلموا من الإساءة إليهم، هذه المقبرة طالها التخريب، تخريب شواهد القبور ونبشها وإخراج عظام الموتى الهشة من التوابيت الخشبية، والبحث عن مادة يزعم البعض أنها ثمينة، الإساءة إلى الموتى الأروبيين بلغت درجة من الهمجية، حتى بعض النفوس المريضة يزعمون تطهير هذه الأرض من المسيحيين باعتبارها أرض الإسلام، خربوا الإنسان فينا، دمروا الحياة، قتلوا الأحياء، هاهم الآن لم يجدوا سوى الموتى ليرحّلوهم عن هذا البلد

الذي اتسع لكل الأمم والحضارات، كان عمي الجيلالي يتحدث وشفتاه ترتجفان، في هذه المقبرة كان لي أصدقاء تقاسمنا كثيراً من هموم الحياة، في هذه المقبرة كان أحبائي من الأروبيين الذين عشقوا شمسنا وهواءنا ورائحة الأرض وأحبوا جزائر الحرية وناضلوا سرا وعلانية وعُذبوا كما عذبنا وتحمّلوا كما تحملنا، مخطيء من يضع الأجانب في سلّة واحدة، بقيت مشدوها وأنا أتابع حمل الرفات، كأن هذه الأرض ضاقت بنا جميعا. استأذنت صديقي وأنا أشعر بالمرارة، مرارة السنين التي تدفع بنا نحو عالم مجهول لا يشبهنا. بالأمس في هذه الطريق بالذات عند ملتقى شارعين وعلى إحدى لافتات الطريق رؤوس مقطوعة معلّقة، متناثرة هنا وهناك، كانت مرحلة من الرعب الذي أستمرّ طويلا، أكثر من عشر سنوات، مرحلة الكرامة المهدورة لبني الإنسان، مرحلة الحقد البشري الذي أوجد لنفسه مملكة خيّم على الجميع، آلاف الضحايا وآلاف المآسي وآلاف القلوب المفجوعة، أجساد مضرجة بالدماء، دموع الأطفال واليتامى و الثكلى، أجهزوا على ما تبقى من الفرح بالحياة .

في الأربعمائة متر هذه، أحتفظ بتلك الذكريات الحزينة، والحزن يأخذ بتلابيبي، إنه أقسى ما يمكن أن يفكر فيه الإنسان في إقصاء الآخر من الحياة لاختلاف في الرأي، ما أتعس هذا الإنسان باسم الله يدفع بالآخرين إلى جهنم، ولكي يستأثر بنفسه الجنان الموعودة. كنت قريبا من مقهى في إحدى الأمسيات عندما تحوّل رواد المقهى إلى أشلاء وأجزاء من لحم آدمي ملتصق على حيطان الشوارع، مرحلة الهمجية التي تجاوزت بربرية كتب التاريخ الدموي.

أحسستُ بالتعب قبل وصولي إلى موقف الحافلات، خيّل لي أنني مازلت أعيش تلك اللحظات المفزعة من الفظاعة الإنسانية، تنهدت الصعداء، لأنني تذكرت كثيراً من أفراد عائلتي وأصدقائي وجيراني وكثيراً من أفراد الحي الذين كانوا ضحية هذه الهمجية التي جاءت في هجمة غير مسبوقة من التاريخ، جنود الشيطان يخرجون علينا من ثنايا تراث موبوء بالحقد التاريخي للإنسان.

امتطيت الحافلة، جلست قرب نافذة، سرت نسمة باردة أنعشت قلبي، سرحت عيني في بساتين البرتقال وبساتين الزيتون التي تعانق الطريق بكبرياء، مساحات واسعة من الحب، من التحدي، فترات طويلة لبلد نقرؤه مجزّأ في كتب التاريخ، هذه مساحات من الأراضي والوهاد والوديان لا تعترف بتجزئة التاريخ، إنه الكل، تاريخ الإنسان الذي أبت السياسة إلا أن تقسمه، تفتته، تقزمه، تختصره، تضعه بين عارضتين لترويضه، التاريخ يروّض لقتله تمهيدا لقتله في قلوبنا، كنت أهذي وقد استأنست بالهواء المندفع من نافذة الحافلة الذي استثار ذهني وخواطري من تلك المشاهد التي رأيتها في أمسية اليوم، الأروبيون يُرحّلون ذويهم، وينقذون بقايا أمواتهم بعد أن تحوّل بلدنا إلى مرتع من الموت البطيء، وجودنا محاولة أخرى للانتفاض ضد الموت، يحاول الموت محاصرة مناطق الحياة فينا بمعاوله التي ينهش بها بقايا أمل.

استلقيت على أريكة البيت، لأطرد الهواجس السوداء من رأسي، أشعلت لفافة تبغ غولواز وأنا أرتشف قهوتي بمزيد من التشبت بالحياة.

كانت لي رغبة فضول جامحة أن أعيد اتصالي بميلود آغا، لكن يجب أن أتصل بعمي الجيلالي ليؤطر اللقاء معه، خاصة أن الأمر يتعلق بمأساة عائلة وفيها بعض

الحساسيات والمحاذير التي لا يمكن أن يعرفها الجميع، فالممرضة "القلعية" ذات الأصول التركية تزوجها الآغا الأب، كزوجة ثانية أنجب منها بنتاً، هي موجودة في مكان ما بالمدينة. أخبرت عمي الجيلالي بنيتي في معرفة المزيد عن هذه القصة، لكنه لم يستجب لي، لأن هناك بعض المحظورات، أمر دقيق ومحرج في آن واحد، هذه العائلة التي كانت لها عقارات وأراضٍ فلاحية، إما صودرت أو أُمِّمت أو تم الاعتداء عليها أو تمّ التحايل عليها، عائلة الآغا لا تحوز إلا على فيلا فاخرة على الطراز الأوروبي، كانت محل مساومات من طرف سلطات الحزب وسلطات الإدارة لتحويلها إلى مرفق عمومي، مما استدعى خوض دعاوى قضائية طويلة ومعقدة، استنزفت كل القدرات المادية للعائلة، كآخر معقل لهم يجب إنقاذه من براثين الطامعين الذين يريدون محو كل أثر لهم في المنطقة، حقيقة الأمر تلك الفيلا، مغرية جدا بهندستها المعمارية الفريدة وبحديقتها الكبيرة وأشجار النخيل التي تزين مدخل الفيلا، جلبت لها مشاكل لا تحصى، آخرها أراد رئيس دائرتها مقايضتها، ولا يمل من الدوران حولها وهو يرفع رأسه باهتمام بالغ. الآغا الأب تزوج القلعية بعد حرب غير معلنة مع سي محمود الذي التحق بالتحرير في منطقة بني شقران، كان سي محمود يستهدف الآغا شخصيا، لكن إعلان وقف إطلاق النار، حال دون تصفيته جسديا، في الشهور الأولى بعد الاستقلال، استقدم إلى منطقة يلل المحاذية كمسؤول حزبي وإداري، الآغا الأب لم يشأ مغادرة سكنه في البلد ليرعى زوجته الأولى" ناصرية " وأولادها وزوجته الممرضة القلعية، لكن شاءت القرارات السياسية الصادرة من أعلى مستوى أن يقتاد إلى منطقة حدودية لنزع الألغام، يقال إنّ تصفيته تمّت هناك. والرواية الرسمية توفي بعد انفجار لغم مضاد للأشخاص، في كل الحالات إن الدولة الوليدة "أرادت ان تتخلص من

هؤلاء الأشخاص بأي شكل، قال لي عمي الجيلالي، يجب ألاّ تفتح الجراح التي لـم تلتئم بعد، لكن المأساة لم تنتهِ. تقرب سي محمود من القلعية واستعمل ضدها كل الضغوط الممكنة وراودها عن نفسها، كان يدخل إلى بيتها ويحملها عنوة في سيارة الحزب دياس بلاس، هاجر الابن إلى فرنسا بعد مناوشات مع سي محمود وقد نجا من محاولة قتل أكيدة، الأب آغا لم يعد من منطقة الألغام الحدودية، الأبناء تحوّلوا إلى منطقة "باريغو" وهي أحد أملاك الجد، والقلعية توفيت في 1964، ميلود آغا الابن الأكبر بعد سنين طويلة يزور مدينته بعد وفاة أمه الناصرية في سنوات الثمانينيات والآن يريد الاستقرار ويقضي آخر أيامه فيها، هو منقطع عن العالم الخارجي إلا من بعض أفراد أسرته وأصدقائه القدامى، لا يحمل لهذه المدينة إلا الذكريات الحزينة، العنيفة الموغلة في المأساة، يكافح وحده مأساة عائلة وسوء السمعة التي التصقت بشرف الأسرة. كان عمي الجيلالي يروي لي تفاصيل الأسرة ونصحني أن أبتعد عن المناطق المشبوهة التي تطيل من أمد الأسى، منطقة ظل الكل يفسّر القصة على هواه، لا تخلو من الإساءة والمساس بكرامة العائلة. أشفقت على هذه العائلة الكبيرة لم تقف في وجه غواية التحول، ارتبطت بخيارات حياتية لم تصمد أمام أعدائها في أول هبوب رياح الاستقلال، رهنت عائلة الآغا الأب مصيرها لمساءلة التاريخ .

سألت عمي الجيلالي، إذا كانت هناك فروع للعائلة في هذه المدينة، نسل آغا الأب ؟ قال لي وهو غير متيقن، أكيد يوجد بعض منهم في مستغانم وباريغو هنا في مدينة المطمر، في فرنسا ، ميلود آغا عاد بعد غياب طويل ليستقر هنا والابنة الوحيدة "للقلعية" لـم تبرح المكان، نشأت عند خالتها وعهد إليها بتربيتها .

صرفت نظري عن مسألة عبد الهادي، عائلة الآغا ومأساتها أخذت كل تركيزي، أفرادها غادروا المدينة تباعا تركوا الأم الكبيرة ناصرية تصارع وحدها سوء السمعة بكبرياء، الأبناء والبنات حوّلوا إقاماتهم إلى مكان آخر، وحده ميلود آغا، أبى أن يبقي إلى آخر أيامه في المطمر، متبعا ضربات قلبه بعناد، آثر أن يواجه مصيره، في مساء كل يوم يدور على بعض أحياء المدينة في دورة عادية، يستحضر تاريخ مدينته ودروبها، يجلس إلى بعض أصدقاء طفولته من الشيوخ، أحيانا يجلس عند عتبة بوابة المدرسة التي كانت يوما من الأيام جزءا منه، جزءا من طفولته وجزءا من شبابه، قال لي عمي الجيلالي نادرا ما يتصل بأخته الوحيدة المتبقية في المدينة باعتبارها ابنة أبيه من "القلعية ". مدهشة هذه القصة التي يقصها الناس في أوقات محددة من الزمن، هي جزء من الذاكرة، شيوخ المدينة الذين عاشوا أحد فصول هذه الحكاية، كل واحد يرويها بطريقته الخاصة إرضاءً لساديته أو لرغبة ما، كل فريق له رغبة في سرد تفاصيلها من نقطة ما، وصولا إلى القلعية، عندها تلتقي كل الحكايات، حكاية تربع سلطة واندثار أخرى، كل سلطة إعلان عن مرحلة لاحقة يستولي فيها على كل تفاصيل الحكاية.

سألت نفسي وأنا في طريق عودتي إلى البيت، لماذا أنا أسير في هذه الحكاية ؟ ما جدوى معرفة قصة الآغا الأب وأبنائه، قصة عبد الهادي سائق الكلونديستان ؟ ألأنها فقط جزء من تاريخ المدينة أم لأننا نحن البشر لنا حق الاطلاع والمعرفة ؟ لا هذا ولا ذاك، قلت في نفسي، لكن أعتقد أن القصة أنتجت نفسها بنفسها لتنتقل بالمدينة إلى مرحلة لاحقة لها، هكذا أعتقد، في مكان ما في البطحاء تراءت لي مدينة المطمر وهي تتسلق سفحاً جبلياً وتربض عند قدميه، بينما أنا رفقة أحد الأصدقاء الذين لا يستهويهم شيء سوى الجمعة

الألمانية الفاخرة، قضى سنوات في قيادة القطارات ولا يزال يذرع المسافات الحديدية منذ الأزل، ولم يتمكن حتى من تأسيس أسرة، متذوق صنديد لكل أنواع البيرة في العالم، كلما حصل على "فاردو" يناديني لجلسة مسائية على أضواء خافتة تشعها أنوار المدينة من بعيد، ونادرا ما كنت أرفض له طلباً. قلت لمحدثي أُنظرْ إلى تلك الهضبة الصغيرة، قل لي أعرفها. قلت له لا تعرف فيها شيئا صديقي، أنا قضيت فيها أربعاً وعشرين سنة ولم أطلع على شيء، أجهل كل شيء، تاريخ المدن مثل الوديان الأرضية التي تستقر عميقا في الأرض، إن لم تسبر أغوارها لن تشرب ماءها، تماما يا صديقي لا يمكن الحكم على جودة النبيذ حتى تتذوق كل أنواع النبيذ الموجودة، هز رأسه بترنح قليل : نـ..عم نعم، شعرت أن صديقي تحت وطأة السكر، ويمط شفتيه بصعوبة، قفلنا عائدين وهو يجري في ذهنه حسابات التقاعد وأوراقه وعدد السنين التي قضاها، قلت له لا تأبه يا صديقي لساعات العمر الآتية، اِنتبهْ لنفسك، أسس أسرة تقيك غدر الزمن، لم أكن واعيا لما أقوله، حقيقة تنطبق على حالة صديقي سائق القطارات الثمل على الدوام، كنت أسير والتفت ورائي وقلتُ له أُنظرْ إلى تلك الهضبة، هناك وردية بوجهها القمري وهناك خديجة الجميلة، وهناك عمي الجيلالي الذي لم يفصح عن مذكراته التي تحكي سيرة حياته، وهناك تفاصيل حكاية عائلة آغا، لم يقل صديقي شيئا، لأنه ربما مشغول بحكاية التقاعد والملفات وفتح حسابات جديدة ليغادر السكة الحديدية إلى سكة أخرى قد تكون مرمرية أو حجرية، أو فخذ امرأة يجلس عليها للانتظار، فجأة التفتَ إليّ و نظر فيّ طويلا، يا عواد بعد الحصول على التقاعد بإمكاني الحديث عن الحب، عمري قارب الستين سنة، أتهيأ للعمر الثاني، سوف أعتزل قيادة اللعينة وأنهي كل علاقة عمل بالمواعيد والصفّارات

والمحطات والوجبات الباردة، سوف أتخلص من مفردات العمل التي تجري على لساني المصاب بلوثة السنين، تلك المفردات التي درجت على تداولها ميكانيكية في صلابة السكك، لا مشاعر فيها ولا أحاسيس، تكاد تكون بذوق الشحوم المعدنية، كلمات تنساب انسياب القطارات على البراري الصحراوية دون أن تصل إلى محطتها في مواعيدها المحددة، تتخلص مني النساء بسرعة، لأنهن لا يعشقن القطارات البطيئة، دفعت بنفسي إلى عتبة التقاعد، أنهي بعض المتاعب النفسية والعاطفية وأخلّصها من سخام القطارات والخذلان الفائض عن الحاجة، يكون حديثي مع حبيباتي عن كل شيء إلا الحب، لا يتصوّرنني إلا غريباً في أرض غريبة يرحل مع الغرباء، أبتسم لهن إلا في مواعيد معينة، سرعان ما تسقط تلك الإبتسامة وتنطفيء مع ميعاد جديد للرحيل، التقاعد هو استقراري الذي يبحث عنه شقيّ مثلي من التشرد والضياع بين المحطات.

صديقي قائد القطارات على نقيض مني، تعذبه المسافات، تقيده المواعيد، تطويه المدن ليلا، وتتقيّؤه فجرا، قدره أن يرحل ويرتحل، الآن يبحث عن الاستراحة من عناء الترحال، يأتي بحبيبته إلى بيته يمنحها كل وقته، ويبقى إلى جانبها على الدوام، ولا يعبأ بتوقيت القطارات، ولا صفارات رؤساء المحطة، ولا بصوت ارتطام العجلات الحديدية على سكك الحديد، لا يعنيه الآن قيادة ذلك الغول المعدني الضخم الذي يمخر المدن والجبال والعواصم والسهوب والصحاري. أوصلت صديقي إلى بيته، عندما أدركت أن صديقي لم يعد يميز بين الشوارع والاتجاهات، ركبت معه سيارة أجرة أوصلته لأطمئن عليه.

صديقي بونوار، لم يبرح ذهني ليلة كاملة، قضى أكثر من ثلاثين سنة بين المحطات والفنادق الرخيصة، وببزته الرسمية دائم التوقف والترحال، اتخذ لنفسه خليلات في كثير من المدن والمحطات، وقع في مشاكل لا تعد ولا تحصى، هناك من تبتزه، وهناك من تستفزه، وهناك من تشاكسه، وهناك من تقف في وجهه كعدوه، ومنهن من تهادنه، هو يعرف أنهن نساء مؤقتات فُرضت عليه ظروف أن يتعامل معهن بمنطق التأقيت ومحدودية الزمن والمكان وهن يعلمن أنه مجرد رداء لا يغطي سوأتهن، أو شخص يحمل رغباته إليهن ويفرغ شحنته وينصرف، يكون قد دفع أكثر من اللازم، لم يحدث أن أحبته إحداهن لعيونه، تعانقه وتغازله على فراش الحب وتلصق بجدران روحه وتسترق لنبضات قلبه، علاقات جافة مصلحية، تنتهي بأول قذف لسوائله، يكابد برودة فراشه، يبحث عن الحميمية في قلوب نسائه، الأمر أكثر من مقدرته، تيقن أن العلاقات العابرة لا تفرز حنانا ولا مودة ولا محبة ولا فرحا، يعيش اليتم والوحدة كجندي مرابط على الحدود اتخذ من بندقيته رفيقا. صاحبنا بونوار جعلت منه الظروف رفيقا للبيرة والخمور، يقطع المسافات والأزمنة وحيدا. قارب الستين سنة وحده دون أن تربت امرأة على كتفه أو تعانقه أو تأخذ بيديه، علاقته بعشيقاته المؤقتات أشبه بعلاقته مع القطارات، علاقات جليدية، معدنية، صماء فارغة من كل حس إنساني، بونوار يريد أن يحيا حياة أخرى ملؤها الحب والسعادة والدفء الإنساني الذي لم يجدها في هذه البلدان والمحطات، عرف أن تراجيديا حياته أخذت جزءا أكبر منها القطارات، يريد أن يبتعد عن القطارات ليؤسس حياة أخرى .

لا أدري بالضبط لماذا أصاحب الكهول والشيوخ والذين تقاعدوا حديثا أو أولئك الذين هم في طريق التقاعد، أحسّ أنهم لم يكونوا سعداء في عملهم، في

وظائفهم، آثروا أن يقفوا على أصابع القدمين في مشاهد مكررة لا ذوق لها ونكهة، يكدحون، يشقون بمبادئهم الفجة، تعصرهم الحياة من لبابهم وترميهم على حافة السكة مثل صديقي بونوار، أو يتحول إلى بائع الكارانتيكا يلتف حوله المشردون والفقراء والموظفون، يفتح لهم حسابات بالكريدي بعدد الصينيات التي يخرجها من الفرن، فبدلا من أن يستمتع بحياته يبقى يبحث عن أفضل منتوج حمص لتلبية طلبات زبائنه، تضيق حياته ولا تتجاوز حدود صينية مأكول الكارانتيكا الرخيصة، صديقي زازو، الذي كانت صداقته لي مميزة، فتواجدي في مدينة المطمر تعني بالدرجة الآولى الإدمان على ماكول الكارانتيكا اللذيذ، وربط علاقات تتجاوز العلاقة الزبائنية ليكون شاهدا على سنوات العمر الأخيرة، اعتزلَ العمل الإداري، الكارانتيكا أحد أقوى خياراته بعدما عرف مدى تخبط الموظفين في العبودية لأجل مزايا قليلة لا تتعدى الاسم الذي يحمله، أما عمي الجيلالي فليس له خيار آخر سوى كتابة مذكرات يقول عنها سخيفة لأجل تمضية وقت لم يكن أبدا في صالحه. في حقيقة الأمر الزمن ليس في صالح أحد ما من أصدقائي، عندما أسألهم يقولون بالإجماع " نريد الوصول إلى نقطة النهاية بأقل الخسائر"، أدركتُ هذا ولا أريد أن أصل إلى نقطة النهاية بذلك الشكل المقرف، أريد الوصول إليها بطريق فرعي آخر بذوق آخر بنكهة أخرى، أقل شيء أنني لا أفتح محلا للمواد الغذائية أو محلا للكرانتيكا، أريد أن أجد لها صيغة أخرى أكثر توافقا مع تطلعاتي.

في اليوم التالي، هتفت لصديقي بونوار أسأله عن أحواله، قال لي إنه في دار البلدية لاستخراج بعض الوثائق الضرورية، قبل أن أقفل الهاتف استدركَ قائلا إنه في نهاية الأسبوع سيدعوني لجلسة نبيذية شهية، له مهمة عمل في شرق البلاد،

أسبوع على الأكثر. كعادتي توجهت إلى مقر العمل، ونزلت عند نقطة بداية أربعمائة متر وأتممتها عند مدخل مقر العمل، كنت أسير بتثاقل، أمرّر الخطوات بضجر، ألقي التحية الصباحية على أصحاب الدكاكين والذين أصادفهم في الطريق من الوجوه المألوفة لدي، أنعطفت إلى مقهى، دفعت ثمن قهوة وأخذتها معي إلى مكتبي، أشعلت سيجارة وارتشفت القهوة لأبدأ عملي متناسيا خديجة التي كانت تتتبع انهماكي في العمل بدون أن ألقي عليها التحية المعتادة، لقد نسيت أن ألقي التحية عليها كعادتي، دخلت إلى مكتبي ولم أزر مكتبها لأمضي على ورقة الحضور، فقد ضجرت من هذه العادات الإدارية، أعتقد أنها وضعت لغيري من الموظفين الشباب غير الملتزمين بمواقيت العمل. أنا كهل وهذا الأمر لا يخصني، أبقى لبضعة أعوام وأودعهم إلى غير رجعة. خرجت خديجة من مخدعها المكتبي وهي تتفرس في وجهي كأن شيئاً ما حدث، صباح الخير، أهلا بك لم تزرنا اليوم !، تفرست فيها جيدا، ابتسمت ابتسامة باهتة وقلت لها: مللت من ورقة الحضور هذه، أرجوك ضعوا أي شيء فيها، أملؤوا هذه الفراغات أو الخانات بأي شيء، لم أعد أستسيغ هذه الهوامش المقرفة، أنا موظف منذ خمس وعشرين سنة، وهذا العمل الإداري السخيف حوّلني إلى مجرد شخص يملأ الفراغات، أرجوكم أبعدوا عني هذه الورقة. اندهشت من تمردي الواضح، فتحت عينيها جيدا، يا سلام !

ثورة حقيقية، هل تعلم كم بقيت لك من الخدمة الفعلية، دون أن أعير كلامها أي اهتمام، هذه الأشياء وهذه الأعراف وهذه الوظيفة أخذت زهرة شبابي، يكفي صديقتي، لن أمتثل لهذه الخزعبلات، لم أقل لك شيئا يا عواد، أنت مازلت شابا وأيامك كلها أمامك، لا تغضب، الإدارة هذه بنيت على

الانضباط، ويمكن أن تتعرض للمساءلة، لحسن الحظ أن المدير في مهمة، أراهنك أن يملأ فراغ الورقة بالأحمر ويحتسب غيابك، أنا مصلحتك، يا خديجة ! أنا ضجرت من هذه الإدارة اللعينة، فليعملوا ما شاء لهم أن يعملوا، ولن أتقيد بالمواقيت، عندما كنت أنهض باكرا في الشتاءات المتجمدة والبرودة القاسية مديرك كان يدرس في الابتدائية. أشعلت سيجارة أخرى ارتشفت فنجان القهوة الذي حملته صباحا من المقهى أصبح باردا كبرودة وجه خديجة وهي لم تفهم شيئا من تصرفي الفجائي، التفت إلى المكان الذي حولي لم أجد الموظفين البائسين الذين يصطادون الكلمات ويؤولونها لفتل سيناريو ما لصناعة فيلم يتلهون به في الأوقات المستقطعة، تقريبا إن الموظفين يبحثون دائما عن شيء ما يلهيهم عن حياتهم الرتيبة، يتجسسون، يتلصصون، يتحسسون، يتكرون قصصا وهمية لتمضية الوقت أو يتلقفون كلمة من هنا وهناك يضعون لها مقدمة وعرضا وخاتمة، ويقدمونها للمدير طازجة لبلوغ بعض المآرب على حساب موظف آخر. كانت خديجة تنظر إليّ كشخص آخر، هناك خواطر أخرى تتزاحم في رأسها ولا تعرف كيف تخرجها، كنت أنظر إلى شفتيها وأسنانها الجميلة، استهوتني في تلك اللحظة، ثم طأطأت رأسي لأنني أعلم أنها تريد أن تسمعني شيئا لم أسمعه من قبل. راحت تتفرس في ملامحي، عرفت أن مزاجي سيء، لا يمكنها بأي حال مواصلة الحديث معي، استأذنت وعادت إلى مكتبها. انشغلتُ ببعض الملفات المؤجلة، أجبتُ عن بعض المراسلات الواردة، أزاحت الكرسي الخشبي من تحتي وخرجت إلى منطقة الأشجار، لأتنفس هواءً نقيا. قلت في نفسي أغلب هذه الأشجار كنت شاهدا على غراستها وكان لي حظ أن شاركت في غرس هذا الصف المنعزل، عمي الجيلالي خطط وغرس أغلب هذه الأشجار، من تين

وزيتون وخوخ وتفاح ودالية العنب، مشيت قليلا، حتى لحقتني خديجة، أين أنت يا عواد ! أنا هنا، فيه شيء؟ لا لا شيء، أريد ان أرافقك، وصلت إليّ، بماذا يذكرك هذا ؟ أدركت في لمح البصر ما الذي تريد الوصول إليه. قلت لها، أتذكر كثيرا من الذكريات وأكثرها طفوا في ذاكرتي هي خمس وعشرون سنة من النكد الوظيفي. يا عواد أنا أتذكر أمورا أخرى لا تقل حزنا عن خمس وعشرين من سنينك، أتذكر عندما كنت أنا وإياك شبابا ونتقاسم الابتسامة ولا نكاد نفترق. أرجوك يا خديجة أصمتي، حديثك يوقظ كل الأشجان. التفتُ إليها وهي تسير أمامي قليلا وهي رغم بلوغها الأربعين لاتزال تحتفظ بقوام رشيق ومؤخرة كروية منزاحة نحو الأعلى، تعجبت كيف حافظت هذه المرأة على نضارتها وطراوتها وقد تفادت مؤثرات الزمن، فالمرأة عموما عندنا ما أن تتزوج حتى يتشوه جسمها، وتتكور بفعل البدانة والانتفاخ، صدرها يتحول إلى كيسيْ رمل متدليين. لكن خديجة ما تزال تحمل القدر اليسير من جمالها الآخاذ . أردت ان أسألها عن زوجها ثم أمسكت حتى لا أثير أحزانها، تركتها على سجيتها وأنا أحدثها عن سنين العمر التي قضيتها في الإدارة، قلت لها نحن مجموعة فراغات، فقاعات، نبحث عن مكان لنا في إحدى معاني الكلمات. قالت لي أي معنى يليق يا سيد المقامات ؟ أحبّك ! اندهشت خديجة، اضطربت في وقفتها، كادت أن تسقط من هول اللحظة، احمرّت وجنتاها، سكنها الخشوع، كانت تنظر إليّ وهي تتفرس في وجهي، برهة من الصمت ثم نزلت دمعة على خدها، عواد ! أعيب عليك هذا الأمر، هذا الشيء لم يأت في وقته، ما تفوهت به الآن، منكر وأشد فظاعة من الحب نفسه. خجلت أمامها، لا أعرف كيف أتصرف أمامها، كانت لحظة من أشد لحظات حياتي تعاسة وبؤساً، مشت أمامي بضعة خطوات ثم استدارت، رفعت يدها

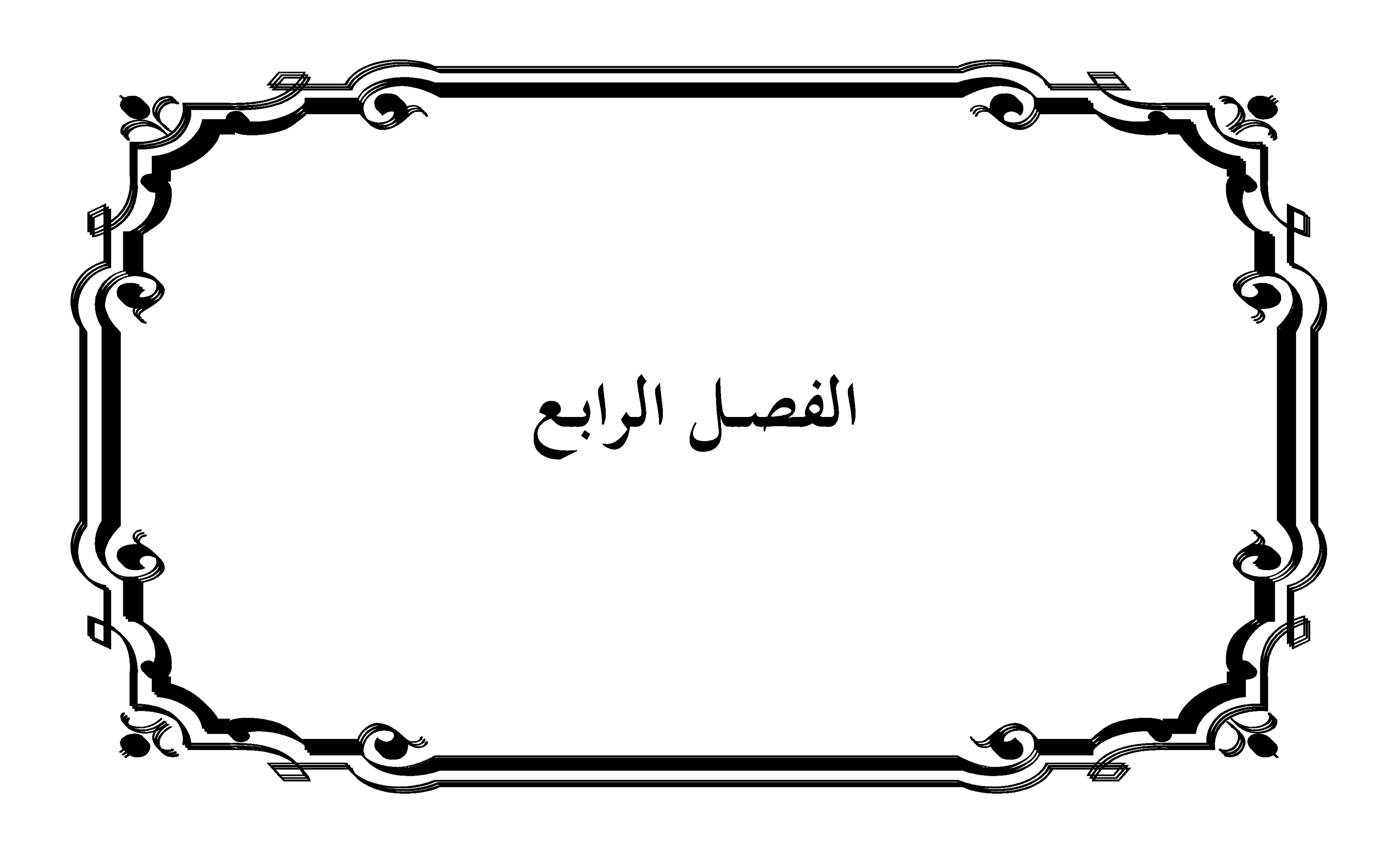
قائلة : انتظرت هذه الكلمة لأكثر من عشرين سنة، عشرين سنة من القحط، اعترافك هذا أشبه بمطر صيفي لا فائدة منه في حين أمسكت أن تغيث في موسمها، بالعكس ستكون وبالا على البشر. انصرفت وهي غير مصدقة بهول المفاجأة، أحسست أنني أصبت كبرياءها، بدأت كلاليب تنهشني، تقضم كل طرف مني، تأكلني الحسرة، كانت قد دخلت إلى مكتبها، لم أتبعها، فضلت أن أخرج من القسم، انتابتني رغبة عارمة في شرب فنجان قهوة مُرّة، مر العلقم، جلست إلى إحدى طاولات المقهى، أشعلت لفافة تبغ غولواز وأنا أفكر في الحماقة التي ارتكبتها.

انغمست خديجة في البكاء حتى تورمت عيونها، لم تستطع الصمود لأكثر من لحظات، انتابتها لحظة تعاسة جارفة قالت لزميلتها وهي تواسيها في حزنها، لماذا لم يقل ذلك منذ مدة ؟ في وقته، يا لسخرية القدر، مسحت دموعها وهي متأثرة أشد التأثر، زميلتها الشابة العزباء كانت تتحدث عن نزق الرجال وحماقتهم وبلادتهم، كانت تتحدث دون انقطاع بسبّ العالم الذكوري هذا، حيث الرجال لا ينظرون إلا لمصالحهم، ولا يأبهون لمشاعر الطرف الآخر. كنت في المقهى، أشعل لفافة تبغ في كل مرة، أشعلت لفافة تبغ والأخرى لا تزال على منفضة الرماد كنت قد أشعلتها للتو، انتبهت لنفسي وخواطري تموج كبحر هائج، هذه القهوة المرّة لم أتأثر لها، ذهبت للبار، طلبت عدة زجاجات بيرة، لم أعد أحتمل كذبي على خديجة، أعرف أنني زلزلت كيانها، أصبتها بسهام في صميم القلب. أصبحت تعاستها مركبة أكثر من ذي قبل، يا إلهي ماذا فعلت !

حاولت لقاء خديجة في العمل، لكنها لم تأت، قالت زميلتها. انتظرتُ طويلا، أردتُ أن أقول لها شيئا ما، أن أواسيها رغم أنني لا تحضرني أي عبارة في رأسي، أقف أمامها تعبيرا للتضامن معها ! زميلتها المهندسة قالت لي كم أنت سوريالي، كل مرة تخلف من ورائك الكوارث، تبا لك !

في اليوم التالي، التقيت خديجة في مكتبها، سألتها كالمعتاد عن أحوالها، قالت ليست على ما يرام، هي الآن تقوم بإجراءات التطليق لدى محكمة شؤون الأسرة بسبب غياب زوجها الدائم، "كرهت هذه الوضعية الزوجية، لم آخذ من الزواج سوى الاسم، متزوجة وغير متزوجة في آن واحد، متزوجة بشبح، مجرد وثائق تشير إلى زواج مفترض، وفي الواقع أكابد الوحدة وحدي، لا يسأل عني ولا يهتم لأمري، أريد أن أضع حدا لهذا الزواج التعيس، الذي لا يملأ حياتي، ليست مشكلتي إطلاقا، أنا الآن أواجه وضعاً صعباً، أواجه الهواء والريح، أليس لي الحق مثل كل زوجات العالم في زوج يكون بجانبي " شعرت بالآسى وهي تتحدث لي بدون تحفظ عن مشكلتها الزوجية.

عندما يتعلق الأمر بالطلاق، من الأفضل التزام الصمت، حتى أبواها لا حق لهم في إبداء رأي ما، لأنه مصير شخص، يتحمل مسؤوليته الكاملة في مواجهته للحياة، أنا أعرف خديجة تعيش يوميات متميعة بين الزواج واللازواج بين أسرة وسرير فارغ، بين اسم مقيّد في وثائق رسمية، وغير موجود في الواقع، تصارع الغياب بالصبر، لكن الصبر يفترض عند وجود بصيص أمل، تحول الأمل إلى يأس، إلى اللاانتظار، حياتها تستحق أن تؤطرها بدل الغياب والفراغ.



الفصل الرابع

تجاهلت رنين الهاتف، كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحا، عادة في التوقيت كهذا، تطلبني المدام لأجل اقتناء بعض حاجيات البيت أو مستجدات تتعلق بالبريد أو الأولاد، لكن إصرار الرنين للمرة الثالثة على التوالي، جعلني أقرأ شاشة الهاتف، مفاجأة في الطرف الآخر الآنسة وردية تطلب المكالمة، انفردت في مكان هاديء وكلمتها، استمعت لعتابها الظريف على عدم اتصالي بها، أهلا بك وردية، اشتقت إليك.

– أعتذر لك ياعواد، عن آخر مرة ألتقينا فيها، سببت لك حرجا، يجب أن تتفهم مشاعري، أنا أنثى أستحق أن لا يشاركني أحد، مخدعي مملكتي، هل فهمت هذا ؟ منحتك جسدي ومنحتك المتعة وعواطفي على طبق من الحب، وبالمقابل أنت تصرفت معي تصرفا أحمق، أعتذر لك مرة أخرى عن التصرف الذي صدر مني ومن ردة فعلي غير المحسوبة، لم أتمكن من مراقبة سخطي عليك لحسن الحظ أن ذلك قبل... يجب أن تراعي ظروفي وأنا أقدّر موقفك وطيبتك ومروءتك، سكتت للحظة ثم أضافت سأحتاجك فيما بعد.

– آنستي، الحادثة لا تحتاج إلى تهويل، نسيت كل شيء ولا أحمل أي ضغينة أو حقد، ردة فعلك كانت جد طبيعية وأنا الذي أعتذر لك.

أنهت وردية المكالمة وقد علقت بعض كلماتها بذاكرتي، استحضرت تفاصيل تلك الليلة، خرجت وأنا عاري الصدر وأحمل ثيابي في الشارع لحسن الحظ

لم يشاهد ذلك أحد، قلت في نفسي هل هذه مقدمة لليلة أخرى أكثر متعة وإثارة ؟ لم أعد آبه للخيانة الزوجية وتلك الهالة التي تحيط بها، أعتقد أنني كسرت تلك القداسة التي أحملها في نفسي، وردية كسرت تلك الحدود الحمراء التي سيجت بها شخصي، زوجتي تغض الطرف عن علاقتي بل تعتبرها هي ملكا للرجل بسبب الملل الذي يعتري فراش الزوجية. أعترف أن وردية تجعل من ممارسة الجنس نكهته الفريدة والمتميزة، تذوقت شهيتها بإثارة للأعصاب وتوابل للروح. أردت أن أطلبها من الهاتف، ترددتُ قليلا ثم أرجعت الهاتف إلى مكانه، مفضلا أن أترك هذا الشأن إلى حينه.

مال جانب اهتمامي إلى وردية، بدأت أدقق في ملامح تلك الليلة غير العادية، استفقتُ من غفلة لازمتني طويلا، قبل ذلك عرفت القليل من النساء اللواتي ألتقي بهن في مناسبات عديدة، خبرتي بالنساء ضعيفة إلى درجة أسقط في أول اختبار معهن، نشأت في عائلة كبيرة العدد، بنات خالي، نساء الأخوال، الخالات، الأخوات، كنت أحفظ تصرفاتهن في بيت جدي الكبير، كُنّ متشابهات، نزقات، طائشات، ينشب النزاع بينهن ليلا ونهارا لأتفه الأسباب، كان يصيبني الصداع طوال اليوم، أتمنى مثل أخوالي ألاّ أذهب إلى ذلك البيت إلا في وقت متأخر من الليل، أدخل إلى البيت دون أن أحدث أي صوت يدل على قدومي، أتسلل إلى غرفة النوم تحت جناح الليل، إشعال مصباح كاف لأن يخرج أحدهم ويوبخك على إحداث جلبة، وطيّرت عليهم النعاس أو نغّصت عليهم راحتهم رغم أنهم لم يروا طعم الراحة منذ أمد بعيد، كرهت كل النساء المحيطات بي وامتد هذا المقت إلى كل النساء اللائي أعرفهن، كانت تحدثني أمي عن السحر والشعوذة والأفعال المنكرة كحروب سرية بينهن، أغلب الظن أن أخوالي لهم

عشيقات في أماكن أخرى وكل واحدة منهن تحاول أن تستحوذ على العالم المحيط بها ابتداءً من زوجها وانتهاءً بكل عدو مفترض يقف في وجهها، تخبرني أن بيتهن ملغم بكل أشكال الحروز والطلاسم، جعلني في زمن مبكر من العمر أكره كل النساء اللواتي أصادفهن، حتى خديجة كانت ضحية حذري الشديد دون أن أفهمها وأحاول الإنصات إلى هذا العالم المغرق في التفاصيل، التفاصيل لا تعنيني في شيء، كانت خديجة تتحدث مطولا وأنا لا أستمع لما تقوله إلا عرضا، لا أتخيلها إلا كما أتخيل إحدى بنات خالي الثرثارات المتآمرات الفظات اللواتي يفتعلن الخصومات ويضعنني في أحابيلهن.

حتما أن وردية ليست مثل بنات خالي، لكن هذا لا يمنعني من الحذر في التعامل معها، أنتظر أن تدعوني ذات ليلة، أستمتع بجسدها الأبيض الشفاف كقطعة صابون مارسيليا، أغسل بها روحي وعلائق عشرات السنين من الغدو والرواح في تلك المسافات، أحترق فيها الفصول والمسافات، أكيد وردية تجعلني في أحسن حال، وأختبر فيها فحولتي بعد أن راودتني شكوك مريبة، طوال المدة التي قضيتها في المطمر، لم يرف لي طرف، وحدها وردية يمكن أن تحرك فيها نوازع قلبي ومياهي الراكدة ومشاعري البليدة.

لاحظت غياباً متتالياً لخديجة عن عملها، عرفت من خلال زميلتها أن وكّلت محامياً في البلدة للقيام بإجراءات التطليق ، تبحث أن تضع حدا لهذا التميّع الأسري، ضجرت وصبرت ولكن طفح بها الكيل. تجاهلت أمرها وهي تعود إلى مقر عملها، الطلاق مسألة شخصية لا تخلو من المأساة، كنت حذرا في التعامل معها في الموضوع، حتى لا يؤوّل الطلاق أو التطليق في اتجاه لا يخدمني، أخشى

من تلك الإشاعات المغرضة المتلصصة التي يطلقها زملاء العمل في موضوع خديجة، أكيد أنها ستكون حرّة أكثر من أي وقت مضى، حتى ولو وهبتني جسدها وحبها إلا أنني أفضل وردية، الملاعبة، المداعبة، الماهرة، المتقنة لفنون كاماسوترا، تعصر روحي، تعجنه، تنشره، تقطّر منه عصير الروح والجسد، تدلكه بعنف تارة ولطف تارة أخرى، تخرج مني كل الآفات والآهات والهواجس والصدأ، آه يا وردية كم أنت عظيمة بأنوثتك !

آلو وردية، انا عواد ؟

- أهلا بك ، الحمد لله أنك تذكرتني (بروح مرحة) أي خدمة ؟
- لا، أنا أسأل عنك فقط، أردت أن أدعوك إلى عشاء بمناسبة عطلة نهاية الأسبوع .
- مسافرة هذا الأسبوع، أترك ذلك إلى وقت لاحق.

الأشياء لا تأتي كما نرغب فيها، سوف أتريث قليلا، حالما تأتيني دعوة رسمية منها، أذهب إليها معززا مكرما.

تذكرت صديقي بونوار، الذي دعاني إلى أمسية نهاية الأسبوع، يبدو أنه لم يعد بعد من مهمته، كان ضمن لجنة متساوية الأعضاء أو لجنة الحكماء كما يطلق عليهم، عشرات القضايا المعروضة للنزاع، يتناولها ملفا بملف ويبت فيها، ورأيه في القضايا المعروضة يؤخذ باعتبار كبير نظرا لرجاحة عقله ومعالجته لها بقدر من الحكمة وبعد النظر، يكاد يكون متفردا في نظرته للناس، الغريب أنه لم يكن حكيما مع نفسه ولم يحسن إدارة ملف حياته، يخيّل إلي الأمر كذلك، دوما أرسم علامات استفهام ما يخص هذا الإنسان العظيم الذي يلجأ إليه عند كل

حالة تتعلق بمشكلة مستخدمي الشركة، صوته مسموع مهم لكن عشيقاته يتآمرن عليه، يتحايلن عليه، يقضمن من روحه جزءا جزءا، مشكلته عويصة، رغم تقدمه في السن، لا يزال يطبخ لنفسه ويغسل لنفسه ويعيش للآخرين .

دخلت خديجة إلى مكتبها دون أن تلتفت إلى داخل مكتبي، مرت دون أن تعبأ بوجودي، انتظرت عدة لحظات قبل أن أنهض وأدخل عليها في مكتبها، طرقت الباب بظرافة، آذنت لي بالدخول، حملقت في وجهها لأقرأ مستجدات قضيتها تبدو متجهمة، ربما لا تزال قضيتها عالقة، سألتها عن أحوالها، قالت لي : لم يحضر زوجها إلى المحكمة، أجلت المحكمة الفصل في الموضوع إلى جلسة أخرى، ربما إلى جلسات أخرى، من يدري ؟

لم أُبدِ أي رأي في مشكلتها، كنت أنظر إليها والاضطراب بادٍ على حركاتها، سلوكاتها، على مخارج حروفها، أشفقت عليها، لأن هناك ضغوطاً ما تمارس عليها وهي تحاول أن تتنصل منها بأي طريقة وبتحدٍ كبير، من بيئتها القريبة، إخوتها الذكور والإناث وقريباتها وبالدرجة الأولى والديها، لا أحد يأبه لها، يريدون تلك الصورة النمطية، عقد زواج وزوج، لا يهم إذا كان موجودا أم غائبا، العواطف والمشاعر لا يبالون بها، مادام يدفع ويرسل أمواله إليها، وكلا الزوجين يعيش عالمه الخاص والمنفصل عن الآخر، لقد تمادى في وحدته وغيابه والمجتمع القريب من خديجة لا يعطي أهمية سوى للمظاهر. قالت خديجة أمام أمها : لا أحتاج إلى أمواله البائسة وانصرفت من أمامها. استأذنتْ للخروج من مكتبها وأنا أكثر كآبة منها. رغم جرأتها في وضع حد لهذا الزواج عديم الذوق والنكهة إلا أنها تهاجمها هواجس وينتابها الخوف من المستقبل، أملت عليها أمها مخاوفها، هواجسها،

ذعرها، هلعها، تكهناتها، كلها تصب في وادي الرفض للقرار الذي اتخذته خديجة، ضغوط نفسية هائلة تواجهها بنفسها. كانت الساعة قاربت الرابعة مساءً، عندما انحدرت في طريقي المألوف الأربعمائة متر، استحوذت خديجة على ذهني، هذه المرأة أمورها تتجه عكس ما تتطلع عليه ، ما تريده حقيقة في هذه الحياة رغم أن مطالبها لا تتعدى أن تكون بجانب زوجها، عانت من تنكر الحب لها لسنين طويلة أما الآن فكأنّ الحياة تدير لها ظهرها.

التقيت عمّي الجيلالي في الشارع المؤدي إلى مقهى البلدية، لم ينتبه لي وهو يمر بجانبي، إلى أن أخذته على حين غرة، أخرجته من سهوه الذي يلازمه طوال الوقت، فرح بي كثيرا، اعتذر بمشاغله التي لا تنتهي، التلفون مقطوع عليه رغم مساعيه المتتالية لإصلاح عطب في كوابل أرضية، الشكاوى لا تنتهي، قال لي والخدمات سيئة، والله يستر من مستقبل الأيام، كل شيء أصبح مترديا، سيأتي زمن حيث حاجياتنا من الماء والكهرباء لا تكفي، ليس بسبب الندرة وإنما بسبب الفوضى التي تسود القطاعات الخدماتية، لا نعرف إلى أين نحن متجهون، هذا البلد يسير في اتجاه الخطأ. قلت له بلد العواجيز لم يتركوا فرصة للشباب لكي يتحمل مسؤوليته، ضحك عمي الجيلالي وربت على كتفي كأنه يرفق بي من سطحيتي وسذاجتي، يا عواد ! هل تنتظر من هؤلاء الشيوخ الهرمين، القيام بتسليم المشعل الأولمبي إلى شباب رياضيين، ثم يجرون بالمشعل في كامل أرجاء البلد ثم يصلون إلى الستاد الأولمبي تحت الأضواء الكاشفة والكاميرات وتحت تصفيق الجمهور، هم يفضلون أن يضعوا هذا المشعل تحت مؤخراتهم النتنة ويتبرزون عليه على أن يسلموا هذا المشعل اللعين، يستأثرون بكل شيء بأسماء مختلفة من الشرعية الثورية إلى مكافحة الإرهاب إلى المخاطر الأمنية المحدقة إلى خراءات

أمنية أكثر خطورة، محمية البترول لا أحد يغادرها ويتنازل عليها، حتى ولو كنت أنا أو أنت ! استدرك عمي الجيلالي نفسه وسألني عن أحوالي، امتعضت قليلا من صراحته، فترة وجودي ضمن الوظيفة العمومية، أحسّ أنني جزءٌ من هذا النظام الموبوء، هذا النظام ببلادته ومساوئه يحرّر لي أجرة نهاية الشهر، لذا أي انتقاد هو من قِبل أكل الغلة وسبّ الملّة، مازلت أعتقد أن الذي يعارض أي نظام، يجب عليه أن يتنصل من كل التزام وظيفي أو إداري. هزّ عمي الجيلالي رأسه غير موافق على وجهة نظري في الموضوع، لم أشأ أن أناقشه، رضخت لسكوته، قال لي : أنا أكثر تحررا منك، يا عواد !

-هيه، هل من مستجدات في قضية صاحبك عبد الهادي ؟

- أهملت الأمر كلية، لم يعد يستحوذ على إهتمامي.

- دع عنك الأمر، الزمن كفيل بأن يكشف عن أسرار الأشخاص.

- لم أعد أولي أي أهمية للموضوع، لكنّي متيقن أنّي سأجد طريقا ما.

وجودي مع عمي الجيلالي يكسبني بعض الثقة في الحديث، ميزته أنه لا يتحفظ على شيء، يتحدث ببساطة أفتقدها في محيطي، في عملي، مع زملائي، مع أصدقائي، كنت كل مرة أتصور أنني مغفل، أدهش من درجة الخبث في العلاقات، كل مرة أصدم في علاقاتي النادرة، فبدلا من توجيه اللوم عليهم، أوجه الانتقاد إلى نفسي بل أجلدها جلدا بدون رحمة، لأنني وحدي أتحمل كل مسؤولية في علاقاتي مع الأشخاص، بطبيعة الحال أشباه الرجال والنساء يضحكن عليّ وينعتوني أحيانا بالمغفّل. حارس المؤسسة يناديني سيدي عواد، تيمنا بالوالي الصالح سيدي أمحمد بن عودة، اكتشفت فيما بعد انه يسخر مني لسذاجتي وبساطتي في

تناول المواضيع والأشياء والأشخاص، أعترف ألاّ أعداء لي، وأعيش في المستوى الأدنى للحياة بهدوء تام، لا أعرف للقلق معنى. أعترف أنني أواجه الحياة بمزيد من المشقة وبمزيد من النية الخالصة وطيبة القلب والصدق، إلا أنني بدأت أعرف أن الحياة أكثر تعقيدا مما أظن.

خديجة تتعامل معي بكثير من طيبة القلب وبمحبة، أعربت عن حبها لي في أكثر من مناسبة، ذات أمسية في أحد شتاءات 2007 أن معدني خالص، فابتهجت لهذه الكلمة كثيرا وكان لها تأثيرٌ طيبٌ على نفسي، وفهمت بعد مدة طويلة أنها كانت تشكّ في علاقتي مع إحدى النساء ولكن تبيّن لها، أن علاقتي بها عابرة ولا معنى لها، كنت تحت مراقبة لصيقة من قِبلها، إلا أن تيقنت أن دمّي بارد، نفس الشيء مثلما أختبرتني وعرفتني وجربتني وسبرت أعماق قلبي، وضعت سورا حولي وسيّجته، إلى درجة أن الموظفات في العمل يتحفظن في الحديث إليّ أمامها أو في غيابها، لأن هناك دائما عيونا وآذانا صاغية، طول الوقت مغيّب عن الوعي، تحت مستوى وعي الرجل الحريص، اكتشفت أن كثيرا من تفاصيل حياتي هناك من يسيّرها بدلا مني، يأخذون القرارات بدلا مني والمهام المسندة إليّ لم أُبدِ فيها رأيا، أقبل بكل المهام والوظائف، بقبول وطيبة خاطر يدهش له زملائي، قلت لهم مادمت أنا في هذه الوظيفة أقبل بكل شيء، معارضتي للمسؤول المباشر نادرة جدا كانت خديجة تقول لي" على الأقل هش الذباب على نفسك"، أبرّر هذا بالخوف الشديد من أن أفقد الوظيفة أو أدخل في صراع لا قِبَل لي بمواجهته، أحب أن أنجز أي عمل ولو كان عشرة أضعاف الزملاء بدلا من التبرم والشكوى، أنا موجود في هذه الوظيفة أنجز وظائفي دون أي احتجاج أو تذمر، أنهي مهامي

بكل ما أوتيت من جهد ووقت وانتباه وحرص، الذي يريد أن يتنصل من مهامه يمكنه أن يعمل ذلك بسوء الخاطر ويتحمل مسؤوليته.

عدت إلى العمل، لأجد صديقي بونوار ينتظرني عند بوابة مقر العمل، سررت بوجوده، آه صديقي اشتقت إليك، كان يضحك وصلت ليلة البارحة ولم أنهض إلأ متأخرا هذه الأمسية، آثرتُ أن أطمئن عليك وأدعوك إلى قعدة رائعة بحضرتك، قال لي وهو يلمح إلى وجود شيء ما يفاجئني به. أظن أن معك "فاردهوت" بيرة جيدة، ابتسم بونوار وهو يقهقه، معي سلعة رائعة لا تراها إلا في الإشهار، إنها "كرومباخير "الألمانية الشهيرة، هدية خاصة إليك، هذه الجعة صديقي لها قصص ألمانية مثيرة للغاية يفضلها الموظفون مثلك ومثلي في تلك العوالم الباردة، شرابها أشبه بالنوم على صدر ناهد غض يثير كل شهوات القلب والروح، قلت له: أنت تريدني أن أذهب إلى عشيقتي وأشهر في وجهها سكينة ! أعرفك يا عواد أنت في كل الأحوال، تنجو بجلدك، ليست لك شجاعة لمواجهة المشاهد العنيفة، قهقه صديقي، وقد أخذ بيدي، نلتقي في المكان المعتاد في بستان بودخيل عند وادي مينا.

ضبطت إيقاع الأمسية على توقيت أشار إليه بونوار بتوابل كرونباخي، تحيل تلك الجلسة معه إلى جلسة مميزة أشبه بحضرة من حضرات أهل حانات الشمال، تتدفق فيها قناطير من هذه السوائل الثمينة إلى غالونات الفرحة والبهجة التي تسري عليهم من سبع سماوات. كل الجلسات مع صديقي بونوار لها نكهة خاصة نستدعي فيها يومياتنا وبعض تفاصيل النشوز في حياتنا، كل منا يستدعي جزءا من حياته تحت ظروف معينة، ومن الصعب استدعاء نقاط الظل فيها، البيرة

تستحضر الأجزاء المشروخة دون عناء يذكر، في لحظة ضعف أو لحظة وعي مغيبة تتدفق الروح بحرية، تنساب كعين ماء جارية، الصدق يفرض نفسه في مجرى الحديث، يتحول إلى إعترافات أو إلى سجال مع الزمن وتارة إلى لحظة هاربة وتارة إلى صخب أشبه بحفلة ميتال شيطانية، تحوم بنا الشكوك ونتبادل التهم فتؤوّل الكلمات إلى غير معناها وقد نوجّه اللكمات إلى بعضنا ثم نتصالح، الجلسة مع صديقي لها طقوس خاصة، انقطعت عنه لمدة أشهر قبل أن أعود إليه، فهو يعرف مدى حساسيتي المفرطة لأشياء بعينها، أحافظ على أسرارها كآخر شيء أقاتل لأجله، أحبّ أن أسترخي هذا كل ما في الأمر، الحكي يأخذ مجاله الحيوي ينعش الصدور ويدفع بالندماء إلى المزيد من التقدم إلى حدود الحديث.

قال لي بونوار قبل أن ينصرف، ماذا عن صاحبك عبد الهادي ؟ قلت له لا شيء، لم أره منذ مدة لأسأله، رغبتي في معرفة المزيد عنه غير مستعجلة سأترك الأمر إلى حين.. صعد بونوار إلى سيارته واندفع رافعا يده مشيرا إليّ أن لا أنسى موعد هذه الأمسية، رفعت الهاتف واتصلت بوردية.

- أين أنتِ الآن ؟

- بعيدة في مكان آخر صديقي، سوف أتصل بك ريثما أدخل إلى البيت.

- متى تعودين يوم أو يومان ؟ أنا مشتاق إليك. عندما تأتي إليّ، لا تأتي محمّلا بعائلتك وغبائك، أُترك كل شيء خلفك، أنا أحتاجك وحدك، عاريا لأقتلك وأشنقك وأصنع منك إنسانا آخر، إنساناً جديداً، تحتفي بالحياة والحياة تحتفي بك.

- قتلك جميل، يعيد بعثي من جديد، أقتلك بالحب، أصلبك على الفراش، أمثل بجثتك. كنت أضحك وأنا أستمع لها وتضغط على مخارج الحروف في توكيد أفعال أشبه بالوعيد.

- ستكون ضيف شرف عندي.

أقفلت الهاتف وأنا أتأمل كلماتها الوعيدية التي تركت فيّ أثرا حسنا، كانت خديجة تستمع إلى حديثي دون أن تعرف وجهة المكالمة لكنها لاحظت سعادتي وضحكاتي المتكررة، خرجت خديجة من مكتبها وتوجهت رأسا إليّ ، هيه أنت سعيد اليوم، يبدو أن صديقك بونوار شحن فيك السعادة ؟ نعم صديقي بونوار من أعز الأصدقاء وأرتاح له كثيرا، قالت لي بلا مبالاة، كأنك لا ترتاح لغيره، أحسست أنها بدأت تنصب لي فخا أقع فيه، قلت لها صديقي بونوار فاكهة الرجال وأنت فاكهة النساء، لم أكن مقتنعا أن خديجة ملح النساء أو فاكهتها، مجرد تحايل على السؤال وحفاظاً على مصلحة خفية، قلت لها كذلك لأتفادى الحرج، المواقف الصغيرة تصنع وتنشىء الأوصاف والنعوت، بونوار يستحقها كاملة، يستحق كل أنواع المدح والثناء، تعلمت منه دروسا عظيمة في الصبر، في محبة الآخرين وهذا كافٍ لأن يخرب علاقتي مع نفسي، وحدهم الآنانيون والذين يدمنون على سماع أصواتهم ورغباتهم وشهواتهم، ويلبون حاجياتهم الشرهة يستطيعون التوافق والتطابق مع الحياة فيتحوّلون إلى كائنات قزمة، كان يقول لي يجب أن تخرب تلك العلاقة مع نفسك لتصبح جديرا باحترام الحياة، كان صديقي بونوار وهو تحت تأثير السكر يصب لي مزيدا من البيرة الباردة، ويمطرني بوابل من الكلام اليقيني، خلاصة حياته الستينية. إذا لا نأبه لأنفسنا ولا نستمع لصراخها

ولا لآلامها ولا لحاجياتها ولا لشهواتها ولا لمحاولتها الحفاظ على تلك الواجهات المظهرية التي تركن لها. أرتاح لحديثه الصادق، يأسرني بصدقه وبدفء حديثه عن علاقته المخربة مع نفسه حتى ظن أنه الخراب ذاته، لكن ربح آدميته وإنسانيته في آخر المطاف، قلت له متحديا: أنت لم تستطع بناء أسرة مثل كامل الأفراد في بلدي ! ليس دائما من يبني أسرة أو ينشئها إنسانا، قطتي في البيت لها أحفاد، أسهل شيء في هذه الحياة أن تتزوج وتنجب أبناء حتى وإن لم تعتن بهم سيتولى الشارع أو المسجد أو المستشفى أو دور الأيتام أو الجماعات المتطرفة بتنشئتهم، أنت أو غيرك مجرد ظل لشجرة تركن إليها العصافير لفترة، وجود هذه الشجرة من عدمها في غابة البشر ليست لها أهمية تذكر. تظاهرت أنني لا أستسيغ كلامه، ولكن في واقع الشعور له الأثر الكامل على نفسي، قلت له: أنت تريد تدمير حياتي أو ما تبقى منها بعدما انتهيت من نفسك وأتيت على آخر ما تبقى منها ! تبا، أنا لا ألزمك بكلامي، نحن في حضرة الاعتراف والمحبة والصداقة التي بيننا، ثمة شيء ما لا تفهمه ثم نهض من المكان الذي كنا نجلس فيه، قطعنا مسافة مئات الأمتار من الحقول والبساتين لنصل إلى مفترق الطرق المؤدي إلى المدينة.

كانت خديجة تنتظر مني كلمة أضيفها وقد لاحظت استغراقي مع نفسي لعدة ثوان دون أن أنبس بكلمة معينة، قلت لها: نعم أنتِ ملح الأرض وفاكهتها، قالت لي باستهزاء، لستُ ملح الأرض ولا فاكهتها، أعرف أنك تجاملني، أريد أن أخبرك خبرا لا يسرك: أنت سبب تعاستي وشقائي وخرابي في هذه الحياة ! دُهشت وتبكمت ولم أقدر أن أردّ بكلمة عن شبهة اتهمتني بها. أنا ؟ ! أنا ؟ يا إلهي كيف تقولين هذا في حقي ؟ كدت أن أصرخ في وجهها، لكن أيقنت أن هناك تبعات ونتائج لهذا الصراخ، احمرّت وجنتاها، بدت أكثر جمالا، شفتاها

ارتجفتا قليلا قبل أن تنصرف من أمامي وأنا في ساحة مقر القسم التي أحسست أنها ضاقت بي، قلت في نفسي بدلا علاقتي بنفسي، خربت علاقتها بنفسها، أتذكر سنين شبابي وأنا أتظاهر لها بالحب وأكتب لها كلمات جميلة شبقية عشقية تأسرها وهي تقرؤها في سريرها بشغف، لم أشأ أن أستمر في كتابة الكلمات الجميلة لأن مخزون الحب المزيف نفذ.

لهفتي على الحضور إلى أمسية صديقي بونوار فيها شغف يتعاظم مع مرور الوقت، هذا الصديق الرائع سيلقنني اليوم فلسفة جديدة، لا يتحدث عن أشياء بعينها ولكنه يجعل الاستمتاع إلى حديثه ممتعا، يتحدث بتؤدة، بهدوء أقرب إلى هدوء الرهبان وسكونهم، ما يختلف عن الناس الآخرين الذين أعرفهم أن كل شيء فيه يتحدث، تناغم نبرة صوته في ارتفاع وانخفاضها حسب تضاريس الحكاية، لا حكي إلا تجربته المريرة مع الحياة، تجربته فلسفة لعوالم سفلية تتوازى مع الواقع، تلتقي به، تصطدم به وتتناقض معه أحيانا.

انقضى القسم الأكبر من نهار اليوم، ضوء خافت ينزل على الأرجاء، يسبق الغروب، أنزل بونوار صندوق البيرة، ترجلت لأساعده في الحمل الثقيل، لتحملنا هي بدورها إلى ما وراء ملكوتها، هذه السوائل الثمينة تغيّبنا كشرط لتحملنا على أجنحتها إلى حيث نريد، بإرادتها هي، تشوّش البوصلات والاتجاهات والأماكن وتضرب بعرض الحائط كل اليقظات وكل منطق وكل إحساس بالعوالم المادية، نحن أمام عرش سلطنة عتيدة، كنت في المكان المحدّد بجانب الوادي تحت شجرة صفصاف كبيرة تطّل على جرف الوادي، ركن سيارته في المنحدر، اخترنا مكانا هادئا يليق بأمسيتنا الموعودة، فتحنا القنينات، أشعلنا لفائف تبغ وتجاذبنا أطراف

الحديث، أخبرني عن مهمته في شرق البلاد لفض نزاعات لا تنتهي منها ما أخذ طريقه إلى المحاكم ومنها ما تمّت معالجته إداريا ومنها ما ينتظر، تحول حديثه إلى أشبه بمرافعة بروليتارية، عن النصوص التي لم تعد صالحة، تحدث عن تجارب مماثلة، عن معاناة لا تنتهي لهذا الجنس البشري، تلذذت أولى قنينات النبيذ التي تلاشت حموضتها، أشعلت سيجارة أخرى، هل تصدق يا عواد، إنني لا أحتمل السفر في هذا العمر، أعيتني المحطات والمدن وطي هذه المسافات، وصلت إلى حافة العمر التي أستهلكت قسما لا بأس به، نتأسف عليه كثيرا، ذهب جهدي وصحتي وشبابي، لو لا صديق مثلك لأصبحت الحياة شكلا فارغا من كل معنى، صورة باهتة لا ظلال فيها ولا ألوان، صديق مثلك يرمّم كثيرا من انهياراتي، أنا كحائط قديم آيل للسقوط في كل لحظة، أنت تؤنس وحدتي، تحولت هذه إلى وحشة تقضمني باستمرار، لحسن الحظ أنه يوجد شخص مثلك إن لم تهتم بي على الأقل تسمع لي، تساعدني على إخراج هذه التعاسات التي تضغط علي باستمرار، أشعر أنني وحيد في هذا العالم الزائف، الغانيات ونساء المتعة كن سببا في شقائي، في العزوف عن الزواج، في تخريب كل علاقتي مع نفسي ومع هذا العالم المألوف لديكم، عالم الأكاذيب التي لا تنتهي، كرهت أن أرى نساءً مثل اللواتي عاشرتهن، سطحيات، نزقات، نهمات، شرهات من فرط المتعة المؤقتة والتي لن تتحقق أبدا، هؤلاء اللائي حجبن عني متعة الحياة الحقيقية مع امرأة قارة تستقر إليها، تماما مثل أكل شيء مسكر وحلو يفسد مذاق القهوة، قلت له: القهوة تبدو أكثر مرارة مهما أضفت لها من سكر لتحليتها، أضاف: أعترف أنني لم أشرب القهوة بمذاقها الحقيقي، كنت أبحث عن المزيد من السكر وحياتي بقيت أكثر مرارة من قبل، هذه هي مشكلتي، بنات المتعة حجبن عني مذاق الحياة وأنا

الآن لازلت أتجرع مرارتها. كانت يدي ترتعش وأنا أفتح القنينة وهي آخر ما تبقى من الصندوق الكارتوني، أعضائي السفلية لم أشعر بها، دبيب خفيف ينتشر ويتوسع إلى رِجلَيّ، كأنهما منفصلتان عن باقي جسمي، أحسست أنني أرتفع عن مستوى الأرض، اضطربت قليلا وتشبثت بالأرض، انتبه بونوار إلى تلك الحركات المضطربة المتشنجة، ضحك، قال اِسْتَعِدّ للطيران صديقي، اِرحلْ، سلّم نفسك لملكوت البيرة المقدسة، اِنْزِل في مطارات حبيبتك وردية، قبّلها، حطّم شفتيها، مُصّ رحيقهما، اِبْكِ أمامها، هي وحدها تستحق أن تبكي أمامها، واطلبْ منها المغفرة، بُحْ أمامها بخوالج نفسك، هي أهل لذلك، كنت أضحك بهستيرية مفرطة، استدركت وقلت له أنت الذي ستوصلني إلى البيت، أعطِ لنفسك فرصة، اِبْق مع وردية، استغلَّ واقتُلْ كل دقيقة معها، وعندما تعود سأتولى توصيلك إلى حيث شئت. قلت له لو طرتُ إليها الآن، العودة غير مضمونة إطلاقا. ركبت مع صديقي في سيارته وأنا لا أعي أي مكان موجود فيه حتى نهضت من فراشي كنت أحملق في جدران البيت، هل أنا في بيتي أم في بيت وردية ؟ استعدت نشاطي، تناولت فطور الصباح، لأتذكر تفاصيل تلك الأمسية التي لا تشبه سائر الأمسيات.

الآن وأنا أسير إلى مقر العمل، أحسست أنني وضيع في مستوى حذائي الذي ضجر بهذه المسافات وبهذا الروتين المتكرر، يحفظ تفاصيل المواسم وتشرّب الأغبرة وأتربة الطرقات المهترئة التي لا تؤدي إلى أي اتجاه، ذاكرتي تعانق تفاصيل الليلة السابقة، لم أتمكن من نسيانها لأبدأ يومي من جديد، تشدّني الليلة الماضية بكل وهجها وروحها وملامحها، رائحة النبيذ تتشبت بأنفاسي، قطرات عالقة في ذاكرتي موشحة بالحديث الذي يتخلل مسامات الليل، بين يوم جديد واطيء

وذاكرة متخمة، آثرت أن أعانق تلك الليلة لترميم ذاتي من أي انهيار، قلت في نفسي: يجب أن أعيد الكرّة ولأمسية أخرى تشبهها. دخلت مكتبي، دون أن أعرج على مكتب خديجة حيث ورقة الحضور تنتظرني كزوجة غيورة تسجّل حضوري، لكن خديجة أكثر غيرة من ورقة الحضور ذاتها، إن لم آت إليها ستأتي إليّ عاجلا، تدق مسمارا آخر في روحي، تشاكسني، تعاكسني، تتفرس في وجهي، تشمّ رائحتي، تدقق في ملامحي. انهمكت في عملي، اندمجت مع أجواء اليوم ولكن خديجة لم تأت !

التحقت بعمي الجيلالي في حانة "الكتوبية"، أبوابها مغلقة على الدوام يظهر عليها سكون أهل الكهف، ما إن ولجت إلى داخل الحانة وجدت أمواجا بشرية تتماوج على أضواء خافتة، قهقهات تتواصل بهستيرية عالية، تمتزج مع موسيقى الراي، الرواد يختفون وراء ظلال لا تكشف إلا عن ملامح مغرقة في سحاب دخان السجائر، صعب أن تميز الوجوه في ديكور يبعث على القلق، قلت في نفسي: لا أحب هذه الأجواء القلقة، العراكية، السوقية، ليس هناك أفضل من الجلوس على جرف الوادي، طلبت من النادلة أن تدلني على عمي الجيلالي، امتدت يد لتشدني من قميصي، التفتت قبل أن أتعرف على عمي الجيلالي وهو يبتسم لي، لم أك أدري أنك من رواد الكتوبية، قلت له أنا لا أحب هذه الأجواء أشبه بأجواء دانتي، لا أحب هذه القهقهات والصراخات وهذا الظلام الذي يلف القلوب والعقول. قال لي إذاً عمّ تبحث ؟ أبحث عنك، أريد أن أخرجك من هذه الحانة اللعينة، نقتني زجاجات ونذهب بعيدا. ما الجديد في مذكراتك التي تكتبها عمي الجيلالي ؟ دعاني إلى طاولة بالقرب من الكونتوار وطلب كأس كوكتيل مثلج لي، قال لي وهو ينظر إلى سطح الحانة المغلفة بشباك صيد

الأسماك، أتعلم سر هذه الحانات التي تضع شباكات صيد الحواتة ؟ إنها من أعرق التقاليد، لأن أصل وجود الحانات كان على موانيء البحر، تستقبل آلاف البحارة الذين يجوبون البحار والمحيطات، البحارة لايحبون إلا عالمهم، ما يرمز ويوحي بذكرياتهم، الحانة جزء من البحر، عربدة البحارة جزء من عربدتهم في السفن، قلت له في مدينتي هذه لا يوجد بحر. قال لي وهو يقطب جبينه أُنظر حواليك، هذه الوجوه المذكرة خارقة في أمواج البيرة والنبيذ ألا يذكرك بعنابر السفن والرجال المجذافيين، الحانة هي جزء من البحر، ما تبقى منها الآن سوى هذه الشبكة المعلقة فوق رؤوسنا، فبدلا من دلالتها على الملاحة فهي الآن تدل على صيد الزبائن وقهقه بقهقهة طويلة ساخرة. لم تحك لي عن مذكرة سيرتك ! يا عواد بيوغرافيتي الذاتية والنبيذ يلتقيان في مواطن عدة، لحسن حظي هناك نبيذ وكتابة، الكتابة والنبيذ يلتقيان في أكثر من موقع وفي أكثر من مناسبة، النبيذ هو تغييب الوعي لأجل ترميم وعي اللاوعي القديم والكتابة هي الوعي الذي يرتقي إلى ما وراء الوعي، أعني بالكتابة كل كتابة تنفر من الواقع المخزي، فالنبيذ والكتابة لحظات مهرّبة إلى ماوراء الواقع، تلك الكتابة التي تسخر من الأبطال والتي تسخر من أنطولوجية وعبثية الإنسان، تلك الكتابة التي تؤسس لإنسان مافوق أخلاقي، لإنسان يرهن وجوده لثنائية الربح والخسارة، النبيذ والكتابة لا يأبهان لحسابات الأشخاص ولا للإطارات التي يضعها الإنسان لحياته تقييدا وتحديدا وتخطيطا، تارة بأخلقة وجوده الإنساني وتارة بأسر أفقه الفكري، فمن ثمة كل النصوص الدينية و الأدبية والأسطورية والعرفية والحكائية هي محاولة لتدجين هذا الإنسان وقولبته ضمن قوالب جاهزة لبيعه والتعامل به في الأسواق، فحريتنا مرهونة بهذه القوالب، وهذه الإيديولوجيات لا تزال تلعب هذا الدور،

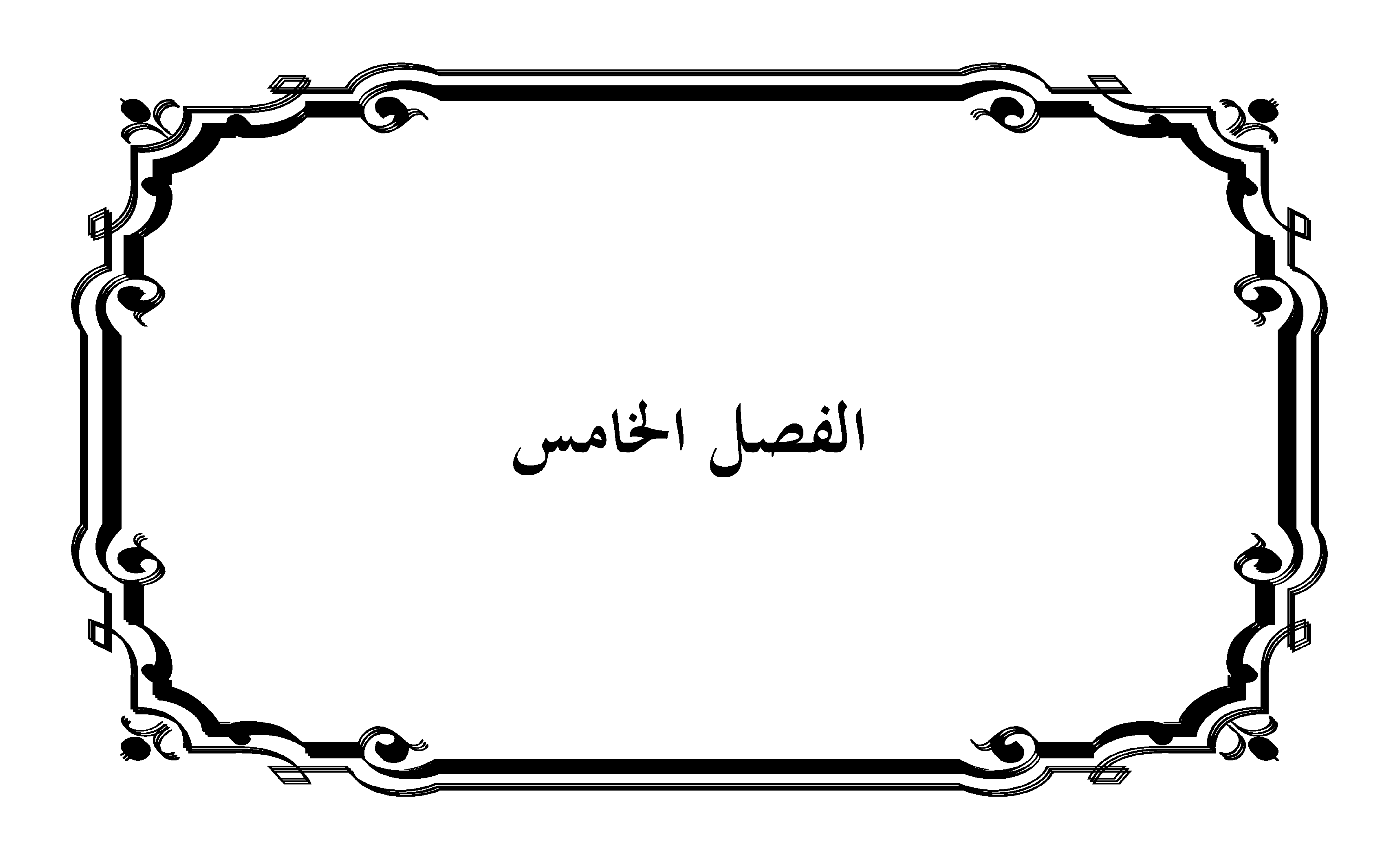
الإنسان ليس للبيع وليس سلعة تعرض في المتاجر بأثمان تحددها السوق، الإنسان معجزة هذا العالم، فكره وعقله وقريحته غير قابلة للتدجين ولا الأسر ولا التنظيم ولا التأطير. استدرك عمي الجيلالي، نفسه وقد لاحظ أنني أقل نشاطا مما كنت عليه، جلس في كرسي وأنا متكيء على كونتوار الحانة بارتعاش خفيف. قال لي أمسك نفسك، أصبحت لا أسمع تلك الأصوات الآتية من أرجاء الحانة بتلك الحدّة، ألفت الجو، أشعلت سيجارة وأنا أستمع لأغاني الراي إلى غاية البكاء، يبدو أن شراب الكوكتيل يؤتي نتائجه، عند ما تشتد عليّ مصائب الدهر وتضغط عليّ الحياة بكل تفاصيلها وكلكلها، أشعل سيجارة تبغ أو أفتح سدادة لـ 1664 أو 33 أو San Miguel أو نبيذا رخيصا لا يخضع لأي مراقبة جمركية أو مخبرية أو صحية أو استهلاكية، سأجد أن هناك معادلاً موضوعياً لتلك الحياة البشعة بكل صورها وأشكالها. فهنا أقول ما شيء أحط وأسخف من هذه الحياة التي لا تساوي قنينة بيرة أو أقل. صديقي البروليتاري عمي الجيلالي لا تأبه بتفاصيل هذه الحياة القحبوية، فهناك حياة أفضل في ربوع العالم يحدد من وقائع النبيذ. سألني عمي الجيلالي بجد: هل أعجبك هذا الكوكتيل صديقي ؟ قد يطول شرحي لفوائد هذا الخليط النبيذي ونجاعته في حياتي وحياة البشر مثلي، لأنها ببساطة هي المادة الوحيدة التي تكبح جماح الوعي المستغرق في قوانين وضعها البشر لاستغلال بعضهم بعضاً، تلك القطرات تجعل من الإنسان إنسانا ومن الفرد فردا ومن الشخصية شخصا وتكسر كثيرا من القيود ومن الأسوار والحيطان التي يضعها الإنسان للإنسان، النبيذ وحده الرخيص منه والفاخر يجعل الإنسان يضع نقاطاًعلى حروف حياته العبثية المرسومة بدقة في سجن وجودي لا يأبه له الفرد إلا بعد أن تمضي فترة زمنية يستهلك فيها كل طاقته في شؤون لا

تهمه إطلاقا، لذلك أدعو المجتمع بكل أطيافه أن يتذوقوا الخمر ليختبروا حياتهم ولكي يكسروا الطوق الذي يقيد حياتهم أو ينتحروا، كل إطار يوضع للإنسان هو بالدرجة الأولى تقييد لحريته، اللعبة تبدأ بمباديء وتنتهي بقوانين وتحكمها عقوبات زجرية، نحن في هذه الحياة السفلية المحكومة بقوانين نص عليها المشرع الرباني والبرلماني وكل من تخوّله القوانين بسياقة هذا القطيع من مراعه إلى منفاه أو قبره. الإنسان الحرّ هو من يتنصل من هذه القوانين، ربت عمي الجيلالي على كتفي وسألني باهتمام، هل احتجت إليّ يا عواد ؟ نعم احتجت إليك، لكي نذهب سويا إلى هذا ..عبد الهادي ! نسأله، نتعرف عليه، يا عواد ما أعرفه عن صاحبك، هو ما أخبرتك به، سأحاول جمع معلومات عنه في أقرب فرصة متاحة، نلتقي غدا في مكان توقف سيارته. خرجنا من الحانة، كانت الأجواء أكثر نقاءً، شقهت طويلا قبل أن أستقل سيارة كلوندستان في اتجاه البيت. قبل أن يسألني سائق الطاكسي عن وجهتي كنت أتحدث إليه بهذيان لم يفهم من هذياني شيئا سوى ما ردده عمي أمامي في يوم آخر عندما قلت لسائق الطاكسي عرفت وحق مستوى وعيي المغيب وحق السماء التي اقتربت منها إلى حد لمسها بيدي، وحق كل مقدساتكم الحسنة منها والقبيحة، الجيدة منها والشنيعة، أن حياتكم لأكبر تفاهة وسخافة ليس بعدها سخافة، أتعرفون لماذا ؟ لأن الله خلق فيكم غريزة حيوانية لأجل بقاء النوع الإنساني المتمثلة في الشهوة والرغبة والأورغازم وحب الجنس ، تماما مثل وضع خاصية في جسد آلة لإدارتها، أقول لك إن الله تعامل مع الإنسان مثلما تعامل مع الحيوان في استثارة غريزته وبعدها أرسل الرسل والأنبياء لكي ينبهوا لبعض العيوب الخلقية، تلك العيوب ليست من الله ولكن لذاتها، تماما مثل عيوب شركات السيارات ولكن الفرق أن الله لم يطلب إعادة

استرجاعها إلى المصنع وإنما بادر إلى إصلاح الأعطاب بطرق ذاتية عن طريق وكلائه الحصريين وهم الأنبياء والمرسلون، فانفجر سائق الطاكسي بالضحك، التفتت مترنحا بصعوبة إلى سائق الطاكسي، لمَ الضحك أعرف أنك لا تفقه شيئا مما أقول، هذا الكلام أوجهه إلى نفسي ولست معنيا به ! خذ أجرتك واحتفظ بالباقي، الأمور الأخرى لا تعنيك .

ما أن وضعت رأسي على الوسادة حتى هاجمتني هواجس شتى، تحولتْ الأسئلة إلى وحوش وأشباح تهاجمني، اكتسحتْ خلوتي، تسللتْ إلى داخل فراشي، تضغط على جسدي المتعب والمنهار، بدا لي الليل كابوسا آخر يبحث عن منفذ آخر له فيّ، يضمني إليه ليجد لنفسه إجابة لكل الأسئلة، أنا مرهق، تراءت لي تلك الصور القديمة المغرقة في عالم رمادي، عبد الهادي ينظر إليّ نظرة مخيفة ويعاتبني، وردية تربط أطرافي على سرير حديدي لأدلي لها باعتراف ما، لم أميز سوى وجهها المتورد بالسواد، رأيت عمي الجيلالي يسير في جنازته، رأيت بونوار يأتي إليّ دون أن يلقي عليّ تحيته المعتادة وينظر إليّ بعتاب شديد، خديجة تحاول بتعنت شديد إلباسي مئزر المجانين معها مجموعة أشخاص يروّضونني بعصي وهراوات غليظة، كنت مذعورا وأستنجد بالمارة الذين لا يأبهون لي ولا يسمعون صراخي، استفقت من نومي مذعورا، الكل يريد بي سوء، صاحب التاكسي يمر من جانبي ويضعني في صندوق سيارته ويذهب بي في وجهة غير معلومة، ينزلني في مكان مهجور ليجهز عليّ، يحمل في يده خنجراً، يجرجرني بعيدا عن سيارته إلى مكان قريب ليضع خنجره على رقبتي، شعرت بالذعر وأنا أصرخ، لا أحد هرع لنجدتي، فأفقت من نومي مجددا والعرق يتصبب من جسدي، بلغ بي الظمأ أن احترقت حنجرتي، أخرجت زجاجة ماء بارد من الثلاجة وجسدي يرتعش من

شدة الخوف، وقفت طويلا عند باب الثلاجة واطمأننت إلى أنه مجرد كابوس من كثرة الشرب ليلة البارحة، عدت إلى سريري ولكن لم أتمكن من النوم مجددا، كنت منهارا في مكاني، ساكنا، أتطلع إلى سطح الغرفة الموحشة، أعيد تلك المشاهد المرعبة التي توالت عليّ في حقد وكره بشري يتعذر عليّ نسيانه لمدة طويلة، هدأت نفسي قليلا من العذاب المسلّط عليّ في هذه الليلة المنكوبة، آثرت أن أبقي ضوء المصباح مشتعلا، الليل في نهايته، خشيت أن تهاجمني هذه الكوابيس مرة أخرى، أغمضت عيني واستغرقت في نوم حقيقي لا أتذكر شيئا منه سوى نهوضي متعبا، مجهدا، مريضا، كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحا، لم ألتحق بالعمل اليوم، يا إلهي !



الفصل الخامس

توجهي للعمل الآن في هذه الساعة ليس له مبرر سوى المضي في طريق الخطأ، سيواجهني مديرعملي بأسئلة لستُ مستعدا لأجيب عنها، هل يحق لي الكذب وأنا في هذه السن المتقدمة والتحجج بحجج واهية وهم الذين احترموا سني وقدمي في هذه العلبة الإدارية، لا أريد مزيدا من الكذب، احتراما لنفسي ولمروءتي. كنت أجرجر قدمي كعربة ذات الجنازر ورأسي مثقل من كوابيس الليلة الماضية، توالت تلك الصور كبكرة أفلام استعرضت الكابوس وأشخاص الكابوس، لا شك أنني سأتعرض لمشاكل ومضايقات أنا في غنى عنها، قلت في نفسي: الجميع ضدي، الجميع ضد إرادتي، حتى هذه الإدارة اللعينة تحاول تدجيني وقد فعلت فيّ فعلها، حوّلتني إلى إنسان مقرف كذّاب ساذج واهٍ و فارغ، كنت أشعر بصداع خفيف يراودني، سوف أثور عليهم لأنهم سرقوا آدميتي، زهرة شبابي، تحوّلنا إلى مجرد أرقام في سجلاتهم، إلى كائنات ممسوخة تترقب نهاية الشهر للحصول على مرتب لا يغني عن البؤس شيئا. بخطوات مترنحة دخلت إلى مكتبي، أزحت الكرسي والساعة كانت قد تجاوزت الحادية عشرة، جلست وأنا أندب حظي بيني وبين نفسي، إلى أن أطلّ عليّ المدير وهو يسألني عن سبب تأخري ؟ قلت له بغير اهتمام وأنا أواجه نفسي بالكذب، أنا متعب سيدي المدير. نظر إليّ المدير طويلا، قبل أن ينصرف. كنت أغلي كالمرجل والعرق يتصبب مني من الخجل، بلغت أكثر من خمسين سنة ومازلت أكذب كأي صغير طائش. نعمَ الرجولة ونعمَ البطولة. بدأت عملي في استدراك ما فاتني من عمل، دخلت خديجة مكتبي وهي

تحمل بعض الأوراق في يديها، كانت تسير بخفة ورشاقة ولامبالاة، وقفت أمامي وعاتبتني أنني لم أولي أية أهمية لها، خير إن شاء الله ؟، قالت لي: خلاص، تمّ الحكم بالطلاق، تسمرت في نظرتي لها دون أن أنبس بكلمة، سكتت للحظات ثم هنأتها على خيارها الشخصي، قلت لها أنت امرأة شجاعة وجريئة، تنهدت ثم سألتني عن سبب تأخري غير المعتاد ومكتبك مغلق والمواطنون في ذهاب وإياب والمدير يقضم أصابعه، انتابته نوبة من الغضب. صباح اليوم كان مكهربا ومضطربا، حلف أن يتخذ إجراءات ضدك لولا تدخلي وطلبت تجاوز هذا الأمر، الشيء الوحيد الذي شفع لك، هو وجودك كأقدم موظف في هذه الإدارة، ابتسمت وقلتُ لها طبعا أصبح التعامل معي على أساس أنني كلب عجوز يدعو لشفقة. حاشا لله، لكن أقول لك إنك تجاوزت، والموظفون في هذا القسم أصبحوا يتحجّجون بك والمدير "ما طاب، ما احترق ". أحسست أنّ ضربة موجعة كانت موجهة إلى قفاي، لكن ربي ستر . هذه الملفات المقرفة تتوالد بإصرار غبي على مكتبي، تواردها يكاد لا ينقطع، مجرد النظر إلى هذه الملفات كافٍ بأن يصيبني بالغثيان، خديجة جزء من هذه السخافة، في أحسن الأحوال أحاول أن أفصل بينها وبين الملفات على مستوى شعوري، أحيانا أراها جزءا لا يتجزأ من هذه الملفات التي تقلقني في سنواتي الأخيرة، وهذا أحد أسباب نفوري من خديجة، تدخل مكتبي كشاحنة تفريغ عمومية تكدس الملفات على مكتبي، لضرورة الوظيفة أبتلع سخطي وأصبحت كبلوعة يفرغ فيها كل رغبات العالم، ملفات من كل الفئات، الفلاحون، المستثمرون، الطرابنديست، المزّيفون، المصلحجية، المضاربون، بني آوى، الغربان، حثالات البشر، الانتهازيون، هذه الفئات تجعلك تشعر بعدم جدوى الوظيفة، وعدم استمرارها على هذه الحالة المزرية. لحسن الحظ أنني مدخن

وحاسة الشم عندي ضعيفة ولا يمكن شم رائحة النتانة منها، لو كان الأمر كذلك لكنت قد أتجشأ أمامها طول الوقت.

-أرجوك خديجة، كُفّي عن ملاحقتي بهذه الملفات الوسخة.

ابتسمت في وجهي وهي تقول: وظيفتنا أن نتعامل مع هذه القذورات بكل ما أوتينا من صبر وصفاء النفس، ألا تعلم أن كل النصوص التشريعية والتنظيمية والمصلحية في صالح هذه الفئات. حملقت في وجهي وانحنت عليّ هامسة في أذني: ترعى باهتمام كل مؤسسات الدولة، أنت مجرد عون تنفيذ وتتقاضى عليها مرتبا.

ارتديت نظارة من جديد، للغوص في أوحال هذه الملفات التي لا تشبه إلا عالماً افتراضياً لا أساس له في الواقع. رن الهاتف، كانت وردية في الطرف الآخر من الخط، تبادلت معها التحايا والمحبة، كان صوتها أرقّ بكثير مما عهدته فيها، قلت لها هذه المكالمة كإشعار بالوصول، قالت لي إنها وصلت أمس وتريد أن أساعدها في إصلاح مكتبتها القديمة، أنهار جزء منها وهي آيلة للسقوط في أي لحظة، هذه المكتبة عزيزة عليّ، هي آخر ما تبقى من متاع المرحوم أبي . سكتت لحظة ثم أضافت:

- متى تأتي ؟

- سآتي هذا المساء حالما ينصرف المدير، أنا في العمل.

- سأعوّل عليك عواد، لا تنس.

إتصالها بي كان كافيا أن يشعل في بعض الأحاسيس المتناقضة ويفتح صمامات الغرائز الحيوانية، أحاسيس بدأت تتلاطم بالذكريات الجميلة والصادمة، قلبي ينبض بقوة، آه هذه فرصة كي أجدّد وأرمّم وأرتمي في أحضانها، كنت أتخيّلها وهي في فستان النوم الشفاف تشير بأصبعها، وهي تأمرني أن أقترب منها لتفترسني وتنزع من قلبي الصديد الأسود.

انطلقت كالسهم إلى بيت وردية في العمارة جيم، بكامل نشاطي كأنني في بداية النهار، اخترقت الشارع الأول و الثاني لأصل عند سفح عمارتها، دخلت وصعدت المصاعد الملتوية إلى أن وقفت عند مدخل بيتها، استقبلتني بمصافحة حارة، وقادتني إلى صالتها حيث المكتبة المهترئة، مجموعات كتب الطب البيطري والمعاجم والبيانات والمنشورات، وقد أخذت القسم الأكبر من فضاء المكتبة، بعض الديكور على أجنحتها الجانبيين، حزمة أوراق مربوطة بعناية فائقة بشريط أحمر، صورة كبيرة على الجدار المقابل فيها يجلس رجل خمسيني بملامح عربية وبرنوس وبري فاخر، عمامة القياد مميزة إلى جانبه تجلس امرأة جميلة بملامح تركية، لباسها لباس أهل القلعة، قلت لوردية وهي تقف ورائي مباشرة، من هؤلاء ؟

- هذا والدي الحاج آغا وهذه أمي القلعية.

- أستدرت لها من فرط الدهشة و أنت ابنتهما !

- هل تعرفهما ؟

- من لا يعرفهما وردية، الحاج آغا جزء من تاريخ هذه المدينة.

- من أخبرك عنهما ؟ كأنها تريد أن تعرف المزيد.

كنت حذرا جدا، حاولت أن لا أثير أشجانها أو حساسيات لديها، قلت لها متى التقطت الصورة ؟

- في نهاية الخمسينيات وتحديدا أوت 59 بعد قصة حب مثيرة، أثارت حفيظة البعض، أولئك الذين لا يستطيعون أن يعشقوا، أمي كانت على جانب من الجمال، كانت اهتمام الجميع، وحسد الحسّاد وضغينة المرضى من المجتمع، تنهدت كأنها تخفي شيئا في صدرها أمسكت عن البوح به. شعرت أنها تريد تجنب الحديث عن والديْها. التفتت إليّ وقالت لي أُنظر إلى هذا الجانب من المكتبة الذي انفكّت ألواحها، حاول أن تعيده إلى مكانه الأصلي أو أعمل شيء ما لإصلاحه وجدت أمامي كل المستلزمات والأدوات لإصلاح الألواح المنفصلة عن جسد المكتبة، تمكنت من إصلاح المكتبة بوضع البراغي والمسامير الجديدة، نظرا لبراعتي في الترقيع ، حياتي كلها ترقيع وتغطية السوءات التي تظهر هنا وهناك، المدخول الضعيف والمرتب الهش، يجعلني أبد الدهر في الاستدانات وتراكم الديون وأحيانا العجز عن دفع هذه الديون، وضعت اللوازم جانبا وأنا أحملق في الصورة الجدارية التي لا شك أنها جزءٌ من تاريخ هذه العائلة التي تصارع سوء السمعة، كنت حذرا في تناول الحديث مع وردية في بعض التفاصيل، قد تكون لها عواقب وخيمة عليّ، الأمر دقيق بحاجة إلى ذكاء يليق بمقام وردية.

- المهمة انتهت على أحسن وجه، الوقت متأخر، يجب أن أنصرف.

- آذن لك أن تشاركني العشاء.

- وردية، أُتركي هذا الأمر .. ليوم آخر، يسعدني أن أكون معك، أعرف أن هذه الأمسية غير مناسبة.

انصرفت، وردية لم تكن ملحة على بقائي، ملامح وردية غير مطمئنة، الجو غير مناسب لأسألها أتجاذب معها أطراف الحديث الذي يتشعب تشعب تاريخها العائلي، أحسست أن اهتمامي بها تغيّر جذريا من امراة للمتعة إلى امرأة تحمل مئات أسئلة الماضي وأسئلة الحاضر. قبل غروب الشمس كنت قد وصلت إلى بيتي وتلك المشاعر المتفجرة قد خفتت تماما، فمقدار الاهتمام الذي أوليه لهذه المدينة أكثر من مقدار الجنس والمتعة، ربما السن له تأثير على المسألة الشخصية وعلى الرغبة، تجاوزت عدة سنين بعد الخمسين وأنا رجل كهل بحاجة إلى رغبات أخرى في هذه الحياة. استلقيت على أريكة البيت، أتفحص جريدة اليوم، كنت أتجاوز العناوين بدون تركيز، رميت الجريدة جانبا وأنا أحاول استدراك تلك الصورة لوالدي وردية، الأب بهيئته الضخمة والأم الجميلة بملامح تركية فارعة الطول، كأنها تمثال من التماثيل الرومانية المرمرية، لم تفارق الصورة مخيّلتي، ذلك الوجه الملائكي بالعيون التي ألهبت الرجال والنساء على السواء، وردية ورثت نفس الملامح باستثناء القامة والهيئة التي ورثتها من أبيها الآغا. وردية هي الخلفة الوحيدة من أمها القلعية، تتجاوزني قليلا في السن وكأنها ثلاثينية، لا تزال تحافظ على نضارتها وأنوثتها وطراوتها وغضاضتها، بعد نكبة العائلة بعد الاستقلال وظهور دولة وليدة، التعامل مع عائلتها كان قاسيا، معنويا وماديا، صودرت أملاكها وصودرت سمعتها، الأب آغا يموت في منطقة حدودية في ظروف غامضة، يتفرق الأولاد وتبدأ الملاحقات والأم القلعية تجتر مرارة اختياراتها، كان الثأر هو المحرك الوحيد للسلطات الجديدة. قال لي عمي الجيلالي والذي عاصر الأب آغا لأكثر من عقدين من الزمن، إنه لم يكن بذلك الشّر كما صوره البعض، ساعد الأهالي أثناء الثورة التحريرية، أنقذ مئات الأرواح، لم يرتكب عداوة مع الأشخاص،

يتغاضى عن الذين آساؤوا إليه، أحرج السلطات الفرنسية أكثر من مناسبة وهو يدافع عن الذين اعتقلتهم السلطات العسكرية وتركوا وراءهم أسراً كثيرة الأفراد، الأب آغا، الشيوخ الذين عاشوا في كنف حمايته يعرفون الآغا الأب، يعرفون قوة شخصيته، ويعرفون تلك الطيبة المستترة التي يكتشفها كل من خالطه، صعب جدا أن تقنع أحدهم أنه كان يحب بلده، الذين يحبونه التزموا الصمت، المسؤولون الجدد كانت لهم الكلمة. وردية من أبناء الاستقلال، تحمّلت عبء وتبعات العائلة، كغيرها اصطدمت بالتاريخ وبسوء السمعة وبالاحتقار والتهميش وبالتبعات، لم يرق لها أن تنشئ أسرة مثل غيرها، تمردت على المجتمع، على محيطها، هي الأخرى أصبحت أسيرة لميراث العائلة، لم تشعر يوما أنها تنتمي لهذا البلد، لأرضه، لهوائه، لشمسه، لثقافته. أما التاريخ فتعتبره أكذوبة وجدت في هذا المجتمع ميدانا لسوق الأكاذيب الإيديولوجية، كنت أشعر بسخطها من واقعها ومن حياتها ومن تفاصيل حياتها مثلها مثل أخيها ميلود آغا، حاولا أن يندمجا مجددا في واقع جديد بعد المصالحة الوطنية الشاملة إلا أنهما يصطدمان بمعوّقات تنم عن سوء النيّة المتغلغل في نفوس الأجيال الجديدة، كان يتأسفان ويحترقان وهما يشاهدان فترة من أسوأ فترات تاريخ الجزائرالمعاصر، الإرهاب توّلد من الكره التاريخي، الحقد الإنساني، وجد لنفسه ملاذا من الإيديولوجيات الوطنية الزائفة، قال لي عمي الجيلالي نقلا عن ميلود آغا، "لو أن الوطنيين آمنوا بالوطن حقا، ما وصلت المأساة إلى هذا الحد من التطرف، الوطنية الزائفة والاستئثار بالسلطة، جعلت من الوطن تراجيديا حفرت بفؤوس الرعب أخاديد الذاكرة ". مكوثي القصير جدا في بيت وردية هو خوفي الشديد من مفاجآتها، هي أشبه بطقس استوائي، تتهاطل الأمطار فجأة دون سابق إنذار لها، وتشرق الشمس من جديد

لمحو أثر المطر السابق، وردية أشرقت لي اليوم وأخشى أن تتحول تلك الإشراقة الأنثوية إلى سيل عارم من الغضب غير محمود العواقب، هذا ما جعلني أخرج مبكرا من بيتها إلى جو أكثر أمانا وأكثر استقرارا، أعرف أن تقلب الأجواء هي الحياة نفسها، خلافا لحياتي وسيرة حياة عمي الجيلالي فحياتنا مواسم للفرح ومواسم للأسى، ننتظر الفرح ليحل علينا في موعده ثم نلتحف بالسواد لمواسم أخرى، شحنة الظلم التاريخي هي الجينات التي تحرّك سلوكات وردية وتصرفها، تعشقني وتكرهني في آن واحد، ترغب فيّ وتنفر مني، تطلبني للياليها وتقسو عليّ، مزاجية أكثر من المزاج ذاته، متهورة حد السخافة، معرفتي بوردية تعود إلى عشر سنوات إلى الوراء تحديدا في 98، عندما كنت مكلفا بمنطقة نائية وفي خضم حملة تلقيح ضد مرض اللسان الأزرق الذي يصيب المواشي، كنت أساعدها ميدانيا في ضبط قوائم الفلاحين ومربي الماشية استعدادا لزيارتها وأخذ التدابير والاحتياطات اللازمة للمواشي السليمة، كنت مكلفا بالأعمال الميدانية والإدارية التي تستدعي المساعدة في حماية الثروة الحيوانية، كنت أنتظرها بالسيارة الإدارية أمام بيتها صباحا كل يوم إلى دواوير ومناطق منعزلة، نخترق الجبال والمرتفعات والمناطق الوعرة أمام مخاطر الإرهاب والجماعات المسلحة التي كانت ترابض في تلك المناطق، سائق سيارة "تويوتا" يلح عليها أن ترتدي حجاباً أو شيئاً ما تغطي به وجهها، لكنها تصّر إصرارا شديدا على لباسها المدني، يدهش أهالي القرى والدواوير وهي دائما بسروال جينز ومئزرها الأبيض وشعرها غير المغطى، تقوم بمهامها في تلقيح الحيوانات ونحن نقوم باختبار ملاجيء الحيوانات ومساكن التربية والزرائب وإعطاء بعض النصائح الإرشادية في عزل الحيوانات المريضة وكيفية تفادي المرض، المهمة امتدت إلى أكثر من شهر، ارتبطت أواصر العلاقة معها رغم أنها كانت تكبرني

بسنة واحدة إلا أنني رغبت فيها كثيرا، كنت أحب أن أبقى إلى جانبها وأتحدث إليها بعد كل رحلة رعب عبر المناطق المنعزلة، أحيانا تنزل من السيارة وتترجل إلى بيتها وتارة تستدعيني إلى بيتها للبقاء معها لساعة إضافية، أشرب القهوة معها إلا أن أنصرف إلى بيتي، كنا نتحدث ونتجاذب أطراف الحديث عن تلك المناطق النائية، كنت أحدّد لها المسار الآمن كل مرة بحكم معرفتي العميقة بتلك المناطق، كانت تحب صراحتي وتحب جدّيتي في العمل وتحب بساطتي وسذاجتي، كانت تضحك أحيانا من نظرتي البدائية للحياة، كانت تضحك بقوة وأنا أدهش كيف تضحك إلى هذه الدرجة من الاستهتار بشخصي، إلا أنها أقنعتني أنني إنسان رائع، طيب أنا إنسان رائع هل تتكرمين بقبلة ساخنة، قلت لها وأنا أختبر مزاحها، قالت لي وهي غير آبهة، القبلة هي أغلى وأكثر الأشياء خطورة لأنثى، بدلا من ذلك سأعطيك جسدي كله ! أتذكّر أنني انتصبت انتصابة كادت نفسي أن تفيض إلى بارئها، أحتقن الدم في رأسي، ارتعدت فرائصي أمام موقف قلّة الحشمة أمام سيدة محترمة وشعرت أنني أسأت إليها، لكن وردية لم تأبه للموقف هذا واعتبرته موقفا عاديا، اكتشفت أنها امرأة متحرّرة من هذا العالم ومن تقاليده، تأخذ مصيرها بكلتا يديها، امرأة متحرّرة وحرّة لا تلتفت إلى هذا العالم المغرق إلى الثمالة في أعراف وتقاليد نسوية ودينية، كان أهالي القرى يسمونها "القاورية" يسألون عنها في كل خرجة ميدانية، أحيانا تذهب وحدها دون رفقتي في مهام حملات التلقيح والعلاج والتطبيب البيطري، تجلس وسط رجال القرى وهم مشدوهين بجسدها الجميل وبصدرها الناهد والأجزاء المكشوفة من جسدها الذي تحوّل إلى اللون الخمري الذي يذهب العقول، ويوقظ الغرائز ويلكز الفتنة من سباتها. بعد أشهر كنت مهتما بها إلى درجة الهوس وحدث أن تجرأت عليها مرة

أخرى وطلبت منها أن تشاركني في ليلة رومانسية جميلة، أطرقت وقالت لي: دع الأمر إلى حينه ! وفعلا وبإصرار مني وإلحاح شديد، استضافتني لليلة مباركة لم أكن أحلم بها، كأنني استيقظت من سبات عميق وعرفت أن العالم جميل يستحق أن نعيشه بتفاصيله، العالم ليس مملا كما خطر لي في بداية الأمر، العالم مضيء ومنوّر في وجود كائنات جميلة مثل الطبيبة وردية، رغم الحادثة التي تنم عن فقر التجربة في التعامل مع النساء إلا أنني أيقنت أنني كنت أعيش في مقبرة عاطفية ودون مستوى الوعي بالحياة، لقائي بها قلب حياتي رأسا على عقب، فقررت أن أسير قدما بنفس جديدة، على أن أكتشف مستويات أخرى للوعي، أكتشفت معنى آخر للحياة. وردية الطبية كانت معنى آخر في حياتي ولحياتي، لأحاسيسي لنظرتي السقيمة والساذجة، كنت أشعر وأنا بجانبها أنها امرأة استثنائية بحاجة إلى كل رعاية وحب، لكن وضعي الإنساني والإجتماعي، حدّد من علاقتي بها، وجدت محاذير كثيرة وتعرجات لا تستقيم، لكن هناك حد أدنى للعلاقات الإنسانية والشخصية. أردت أن أتعامل معها من خلال عيد ميلادها المصادف للثامن والعشرين أكتوبر من كل سنة، لكن لم يحدث أن احتفلت بعيد ميلادها منذ أن بلغت عشرين سنة رغم إلحاح ذويها، مربيّتها الخالة رقية وزوجها وأبناؤهما، ترى وردية في أعياد ميلادها مجرد نصب خيمة في أعلى الرابية دون جدوى، مسدلة الأجنحة موصدة في وجه الرياح، قالت ذات يوم أن عيد ميلادها شمعة انطفأت يوم ولادتها، أردت أن أذكرها ملحّا عليها قالت لي بتذمر شديد " أرجوك عواد، لا يهمنّي هذا. .هراء أنك تحاول، أيامي متشابهة، لا داعي لإضفاء مزيد من حلاوة لأيام مرّة كالزقوم، فشلت في إقناعها في التخلي عن فكرة اللاجدوى، في حين عيد ميلادها يستحضرني بقوة بدلا منها، هوس يجتاحني كل

سنة، تكاد وردية لا تتذكره بكل ما أوتيت من قوة النسيان الذي يشبه فراغات البرانويا المتقدمة.

وردية تحب عملها البيطري، تقدم خدماتها البيطرية بكل أريحية، تلبّي الطلبات والتدخلات، تساهم في حملات التلقيح ومكافحة الأمراض، تلقح الحيوانات المريضة والمصابة، تتواجد طول الوقت، يلتجيء إليها المربون والفلاحون في أمسيات شتوية عند استعصاء حالات عسيرة في تخليص العجول أو الحملان من أرحام أمهاتها. وردية تستجيب لهذه الحالات الطارئة، ترتدي مئزرها الأبيض تستقيل سيارة أحدهم في اتجاه الجبال والغابات والمناطق الموغلة في البعد والنسيان، الفلاحون سعيدون بوجود "القاورية" بشعرها الأصفر الذهبي المسدل على كتفيها وبشرتها البيضاء كحليب الأبقار وأنوثتها الفياضة، نساء تلك المناطق تستثيرهن وردية بعدم اهتمامها لكلمات المدح من أزواجهن، ترافق الفلاحين وتداوي قطعانهم أو ترشدهم وتجلس في صدر مجالسهم، نظرات الرجال ترميها كالسهام، قال أحدهم وهو يهمس إليّ، عندما نرى أنثى مثل هذه، أحسّ أنني متزوج مع ولد عمي الرجل ! قلت له في نفسي لم تر شيئا لو رأيتها وهي تتعرى ستطلّق زوجتك فورا. الاعتقاد السائد عن النساء هو أنهن مثل الفاكهة وثمار الأرض، لكن مع وردية اكتشفتُ أنهن من نفس الصنف ولكن يختلفن في درجة الجودة من أردئه إلى أجوده، تفاحة من صنف "غولدن ديليسيوز" تلك التفاحة محمرة الوجنتين كامرأة غواية تسلب الأنظار، إذا وضعنا النساء حسب معيار الجودة فوردية من النوعية الممتازة التي تبهج القلوب والأرواح دون منازع . أكرر إنها تفاحة غولدن ديليسيوز.

هتف لي بونوار من محطة بعيدة ، كنت أستمع إليه بصعوبة وهو آت من محطة وهران في صبيحة اليوم، كلماته اختلطت بصوت عجلات القطار التي تذرع السكة الحديدية، هل أنت بخير؟ لا بأس، نحاول أن نقللّ من خسائر الأيام التي تمر علينا. جيّد، انتبه إلى نفسك ! هل هناك بيرة جيدة اليوم ؟ نترك هذا الأمر إلى الأيام المقبلة، ربما إلى نهاية الأسبوع، هناك مسألة أريد أن أحدثك عنها، متى يتيسر لك الوقت. أنا تحت أمرك يا بونوار. لنلتقِ في مقهى "تشاطو". أوكي. كانت الخامسة مساءً عندما دخل بونوار إلى المقهى وأنا أستمتع بارتشاف قهوة أقرب إلى المرارة، جلس صديقي إلى جانبي وهو يسألني عن أحوالي وكيف قضيت هذه المدة. الحمد لله صديقي، أظن أنك بدون بيرة صديقي هذه الأيام، لا تهتم أيامنا المقبلة سوف تكون على حسب ذوقك، قلت له ذوقي قد يكون مختلفاً هذه المرة، لأنني أحلم بتذوق نكهة مختلفة، من أجود أنواع الثمار، أنا مختلف عنك جذريا، أريد أن أستغني عن كل شيء، أريد تفاحة وخلاص ! فهمت من صديقي بونوار أنه يريد أن يستقر، يريد أن يتدارك قطار الحياة مع أنه أكثر تجربة بالقطارات، طيب أنا تحت أمرك. سكت لبعض الوقت، نظر إليّ جيدا، أحسست أنه يريد قول شيء مهم للغاية، أشعلت سيجارة أخرى وانتبهت إلى مخارج حروفه. قل يا بونوار ! أريد أن أستقر، يعني أن أتزوج، نعم أفهمك جيدا، هل هناك امرأة تقبلني للزواج بها، تعرفها جيدا، تكون أهلا لي، لا تنكد عليّ أيامي المتبقية. عزيزي، النساء موجودات، والتي تناسبك لا أعرفها تماما، العقول والنفوس والأرواح والسلوكات لا أضمنها لك ؟ قال لي أعرف أن المرأة نصيب، لنترك الأمر للصدفة، لا أحد اختار بمحض إرادته، هذا هو الجزء الأكثر إثارة في هذه الحياة. صحيح، ولكن في الصدفة أطر في حدها الأدنى وحدّها الأقصى. استمع

إليّ وهو يريد أن يسمع إجابتي في هذه المهمة الدقيقة، كنت أحملق في حائط المقهى حيث صور الفريق الرياضي المحلي في سنوات الثلاثينيات من القرن الماضي، ثم فجأة لاحت في ذهني فكرة خاطفة، يا بونوار هل تروق لك خديجة ؟ تطلقت حديثا، في حقيقة الأمر هي من طلبت الطلاق، لأن زوجها غائب على الدوام، هي تقضي أيامها الأخيرة من عدّتها بعد الطلاق. نظر باهتمام أكبر، أكيد أن علامات استفهام كبيرة تدور في رأسه، لا يعرفها كثيرا، وفي إحدى المرات حدثته عنها بأنها متزوجة من رجل لا يأتي إلا نادرا. طيب، حدثها عني، بكل شيء، بكل تفاصيلي، قل لها إن بونوار رجل القطارات اتخذ من النساء مجرد محطات، والآن يريد أن يستقر كقاطرة مهترئة ليموت في إحدى المحطات وأنتِ محطتي الأخيرة. ضحكت ضحكة مدوية اهتز لها كامل جسدي. لا عليك صديقي هي تناسبك جدا. متفتحة ومحترمة وعاشت أياماً من الوحدة، لم أسمع عنها شيئا يسيء لشخصها. صمت صديقي، دفع ثمن القهوتين وخرجنا من المقهى وأنا أفكّر في خديجة، هل تقبل بصديقي بونوار زوجاً لها، بذلك أكون قد ضربت عصفورين بحجر، أستفيد من تحرشها المستمر بي وأخدم صديقي بونوار قبل أن يركن إلى أيامه الأخيرة، لقد أحس أنه بلغ مرحلة بداية النهاية بمفهوم المجتمع المحلّي، ستون سنة بداية مرحلة أخرى من العمر، حياة ثانية تحتاج إلى رفيق العمر.

في صبيحة ذلك اليوم، كعادتي نهضت متأخرا قليلا، أرتشفت قهوتي وأشعلت سيجارة بعد حلاقة سريعة، وضعت ربطة عنق جديدة اخترتها لنفسي وقد اعترضت عليها زوجتي بسبب عدم انسجامها مع القميص الجديد، طبعت قبلة على وجنتيها وخرجت إلى العمل كعادتي، ركبت الحافلة ومضيت إلى أن

وصلت إلى العمل مرورا بأربعمائة مترا مشيا إلى أن وصلت إلى عتبة القسم الفرعي.

سألت عن خديجة، وجدتها منهمكة في أوراقها، غارقة في هواجسها، سلّمت عليها وأنا أبتسم، خديجة تعرفني أنني لا أبتسم إلا نادرا، أغلب الوقت أدخل متجهّما، في حقيقة الأمر مصدر ذلك التجهم هو تذكر اليوم الطويل الذي ينتظرني بين الملفات والأوراق والأعمال المكتبية التي لا تنتهي، قالت لي بفضول أنت اليوم على أحسن ما يرام، أليس كذلك ؟ يحدث أن ينشرح الشخص لمجرد لقاء ودّي، فيحس بجدواه في هذه الحياة. أبعدت الأوراق التي بين يديها واعتدلت في جلستها لتسمع مني المزيد، غريزتها الأنثوية يسبق حدسها أحيانا مثل كل نساء العالم. قالت لي خير إن شاء الله ؟

- نعم، أريد أن أحدثك على انفراد ؟

- لنذهب إلى تلك الحديقة.

- لا أحب تلك الحديقة، لا تليق بمقامك.

- لم أفهم.

- تعالي إلى مكتبي.

خرجت من مكتبها، زحزحت الكرسي الذي رافقني منذ عشرات السنين، جلست هي في الجانب الآخر من مكتبي، نعم عواد، تكلم !

- صديقي بونوار يريد الارتباط بك بقصد الزواج، أنا اقترحت عليه ذلك. ما رأيك ؟

- لا تقل إنه يريد امرأة أخرى لمحطة أخرى !

- لا، هو في محطته الأخيرة من العمر، يريد أن يستقر نهائيا.

- من يضمن لي هذا ؟

- لا أضمن لك أي شيء يا خديجة، إنه صديقي المفضل ومن أحسن الأشخاص الذين صادفتهم في حياتي، إن كنت تريدين حياة عادية أو مثيرة فالأمر يتعلق بالصدفة وحدها، أنا فاعل خير.

- نعم ، نعم ، يسعدني هذا.

رأيت خديجة كيف كانت تنظر إليّ في حيرة من أمرها، فهي لا تحتاج إلى قرار خاص بقدر معرفة بعض التفاصيل عن صديقي بونوار، سألتني عن سنّه، بعض تفاصيل حياته، التزمت بوصية صديقي أن أقول لها كل شيء، حتى تتخذ القرار المناسب. قالت لي وهي تنظر إلى عيني مباشرة وقد تسرب منهما الشك :
- أعرف أنك تريد التخلص مني ! رغم ذلك أحب اقتراحك هذا، مررت بهذه التجربة الحياتية أصبحتم أكثر قلقا، الجميع قلق من حالتي ولا أحد قلق من معاناتي الزوجية، أنتَ وغيرك من أفراد المجتمع تمارسون الرقابة والتدمير الذاتي. كنت أستمع إليها بروية وأتأمل كلامها، أعجبني ردة فعلها، أول مرة أقتنع بحديثها واتهامها، أوافقها الرأي، الزواج هو في حد ذاته هو التدمير الذاتي لإنسانيتنا، لبراءتنا، نظرتنا للحب وللحياة و للإنسان. هممت بالخروج من مكتبي، فنهضت هي الأخرى في تثاقل وقالت لي: يمكن أن يأتي في أي وقت لأتحدث معه، أو له حرية اختيار مكان أو فضاء لأتعرف إليه جيدا، الزواج شر لا بد منه !

أخبرت صديقي بونوار، أنه يمكن أن يتصل بها في أي وقت، فلا داعي للشموع الرومانسية أو اللقاءات المغرقة في الحميمية، هي الآن لا تأبه للحياة مثلما كانت في السابق، لقد تجرعت من تلك الكأس المرة، قال لي بونوار هي تقول هذا وفي باطنها تضمر شيئا آخر، قراري يتوقف عند نهاية اللقاء، حتى أنا رغبتي في الزواج نسبية، ممكن أن أواصل المغامرة غير المحمودة العواقب، وممكن جدا أن أموت وحيدا كعصفور على غصن شجرة وارفة لا يكاد يتبين وجودك عليها.

حصل صديقي بونوار على هاتف خديجة ورتّب لقاءً معها، أخبرتني خديجة أنها أختارت مكانا عاديا جدا، في مطعم "محي الدين"، القريب من محل إقامتها. بونوار على عكس خديجة تجربته في الحياة متنوعة تنوع أصناف الشراب الذي كان يختاره بعناية فائقة، خديجة قد تكون النبيذ المختلف بمذاق مختلف، قد تسكره إلى الثمالة، وهذا ما أتمناه لهما، وقد يصاب بلوثة الحياة ويستمر في السكر على جرف الوادي كمحطة سيئة من محطات حياته. لا شك أن اللقاء هو أشبه باللقاءات المصيرية في كرة القدم، مقابلات السد التي تحدّد مصير الأشخاص ومصير الأشياء. ارتدى بدلته الجديدة وحلق ذقنه وركّب طاقم أسنانه، بحث عن ربطة عنق ملائمة، وضع عطراً خاصاً ليخفي آثار التدخين التي تشي بها كل مسام من مسامات جسده، وتوجه رأسا إلى المطمر، حيث مطعم محي الدين، انتظر قليلا قبل أن تدخل خديجة إلى المطعم لتجده هناك على أريكة مخصصة لرجال الأعمال والمحادثات ذات الأهمية، أعرف تلك الأماكن جيدا عندما يكون لي لقاء مع شخص مهم أو لقاء مهم، أدعو ضيوفي إلى ذلك المكان. مشت خديجة خطوات متأنية مع بعض الحذر، يظهر عليها الارتباك كعذراء أمام شخص لا تعرفه معرفة شخصية، اللقاء هذا يحدّد كل شيء. صديقي بونوار لم ينزل عينيه

وهي متجهة إليه رأسا، على رؤوس أصابعها وقد لاحظ اضطراباً ما، وهو أمر طبيعي لأي شخص يواجه المجهول . تبادل التحايا والابتسامات، والوقوف وجها لوجه يترك انطباعات تنم قبل كل شيء عن تعديل لنبرات الصوت وتعديل للمزاج، حتى يكون في مستواه العادي ضروري لمحادثات لها تأثير على مستقبل الأمور والأشياء. قد تطول تلك المحادثات أو تقصر حسب قابلية الأشخاص ومخزونهم العاطفي والنفسي. كنت أتوقع أن تطول الجلسة بينهما وأراهن على ذلك، اعتقادا مني أنه أول مرة يجدان من يستمع إلى حديثهما ويملأ فراغهما، وهذا في حد ذاته إنجاز عظيم لهما وهي المزية الجميلة التي انتقلت طبيعيا إلى المؤسسة الزوجية، ونادرا ما تبقى في صفائها وأبهتها بعد العبور إلى السرير.

انتظرت طويلا، فأيقنت أن الأمر في مساره الطبيعي، ليتعرف إليها ويسمعها هواجسه، ويحدد كل واحد منهما مصيره تجاه الآخر. كأنثى تلتزم الصمت وتصغي له جيدا وإن تحدثت تتحدث إليه بتحفظ شديد وحذر شديد، تنتبه له جيدا، وتقارن بين الشخصين رغما عنها، تمثل لها التجارب وتضع بعض النقاط المبهمة وأسئلتها تأتي تبعا لمناطق الظل أو المناطق المبهمة، غريزتها الأنثوية توجهها توجيها نحو الأسئلة أكثر إلحاحا، وهو بدوره يزيغ بعينيه نحو مناطق الجسد الأكثر شهوة، يطيل النظر إلى صدرها، إلى مفترق الثديين، المنطقة أكثر سخونة في جسد المرأة يعول عليها في شتاءاته الباردة أو الفترات الأكثر كآبة في حياته، حيث منبع العاطفة الإنسانية تتولد منها تلك الشحنات التي تجعل من الحياة معنى و قبولاً، و تستحق أن تكون له مسارا بنكهة مستساغة.

بلغت الساعة الرابعة مساءً، أذان العصر الذي يصدح عبر مكبرات الصوت، قطعت سلسلة تفكيري في صديقي بونوار ومصيره مع الزميلة خديجة، خرجت إلى الشارع، تراءى لي أنه أطول من اللازم، كنت أسير متثاقلا كأنني كنت نزيل خم دجاج، ضوضاء داخل الإدارة ورنين التلفونات المستمر دون انقطاع، وحدهما كفيلان أن يجعلاك على حافة الانهيار، ناهيك عن الإرهاق والتعب الشديدين، كنت أتمنى أن تقف سيارة لي، تقلني إلى البيت، مصروف الجيب غير كاف لكي أستقل سيارة بمفردي، كنت في ما مضى أقول أين أنت ولد الحلال حتى توصلني إلى البيت أو على الأقل إلى مدينتي، في أغلب الأحيان أقطع تلك المسافة الأربعمائة، مترا بمتر، توسلت في نفسي أن يأتي ولد الحرام ليحملني بعيدا، فليكن. مشيت خطوات حتى توقفت سيارة أمامي من نوع رباعية الدفع، حسبت أن صاحب السيارة ينتظر شيئا ما، تجاوزته قليلا، لم أنظر إليه، ناداني وأنا أمشي في الجانب الأيمن من الطريق، التفت إليه، عدت أدراجي نحوه لعلّه يسأل عن شيء ما، خاصة إذا كان غريبا، اقتربت منه، لم أتبين جدا ملامحه إلى أن عرفته عن قرب، أنه لكحل الجاني صديق طفولتي الملقب بـ"أبي مسلم "، هذا الفتى الذي انخرط في صفوف الجماعات المسلحة في فترة التسعينيات، صعد إلى الجبل، لم أره منذ تلك الفترة، التي اختفى فيها نهائيا، كانت الأخبار تردنا بكثير من الفانتازيا عن تحركاته وعن نشاطاته في المناطق البعيدة النائية، اختار العمل المسلح، في كل مرة يصلنا خبر ما عن توقيفه أو قتله، وها هو الآن أمامي حيّ يرزق بسيارة مهيبة المنظر، خجلي جعلني أمتطي السيارة وأتخذ مكانا إلى جانبه. انطلقت السيارة فأحسست ببعض الامتعاض، التزمت الصمت، طوال الرحلة، كان يتحدث عن طفولتنا وشبابنا وبعض الحماقات الصبيانية في نفس الحي الذي

كنا نسكنه، وضعي كان أشبه بقحبة تفكّر في هدف واحد وبدقة، فقط أريد ان أنزل من هذه السيارة وأن أبتعد عن هذا الشخص الإرهابي الذي استفاد من قانون الرحمة، الذي عاد محمّلا بدون شك بالنصر المبين، وبأكياس المال ليبني مشاريع ضخمة وأنا الذي لم تغريني الأموال ولا الأمجاد ولا الألقاب، ليس لي سوى مصروف الجيب لا يكفي لإطعام أسرتي ليومين. كان لكحل الجاني وهو يقود سيارته في اتجاه المدينة يسألني عن الوظيفة ويسأل عن بؤس التوظيف عند الدولة والاستقلالية ومحدودية الرزق وكثير من الأفكار، كنت أحدث نفسي، هذا "البونادم" لا يحق له الحديث عن الدولة ولا الأفراد ولا الموظفين رغم أنه من أكبر المستفيدين من مرحلة دموية لم يجنِ منها أغلب أفراد المجتمع سوى النكبة والبؤس والتشرد والقتل والآلام والحزن. مرت عدة عقود من الزمن والذاكرة حبلى بالسواد، طلبت منه أن ينزلني في مكان محدّد قريب من الحانة الكتوبية. توقفت السيارة بعد تبادل عبارات الشكر والمحبة، فعلا أحسست أنني منافق أكثر مما يحتمله وضعي الإنساني، دخلت إلى الحانة وأنا في قمة الغضب لأثأر من هذه النفس الكئيبة، شحنة كآبة أجتاحتني لا قبل لي بصدها سوى بشرب المزيد من النبيذ، كثيرا من النبيذ، لا أعرف ما الذي حدث بعد ذلك، أخبرني أحدهم بعد أيام أنني تصرفت تصرفات غير محترمة تجاه رواد الحانة، كنت تطلق شتائم وسباب اضطر صاحب الحانة إلى أن يخرجك عنوة، ولولا أنّ أحدهم ممن يعرفونني جيدا تكّرم بسيارة كلونديستان أوصلني إلى البيت لنمت على أرصفة المدينة.

ضاقت زوجتي ذرعا بتصرفاتي واكتشف الجيران أنني مجرد نغل عربيد، أنزلني صاحب السيارة في مكان ما، بعيدا عن بيتي فترجلت مترنحا وأنا أوجّه الشتائم والسباب إلى أن دخلت البيت. كانت تجربة قاسية عرفني أهل الحي والجيران أنني

فعلا رجل غير محترم، وذلك الغشاء الذي كنت أغلف به شخصي هتكته هتكا، فلا جدوى من إعادة ترقيع أو إصلاح ما حاولت إخفاءه لسنين طويلة، الصدمة غالبا ما تقوم بتعريتنا دون سابق إنذار، فانكشفت سوءتي للجميع. في حقيقة الأمر أنا كأيّ مواطن شريف أو يعتقد أنه كذلك، يعمل على الجانب المظهري من سلوكه وتصرفاته، تلك الواجهة الشخصية مهمة للغاية، مثل "الكوستيم" و"الكرافات" تماما، يحترمك الناس ويحيّونك صباحاً ومساءً ويشيرون إليك بالبنان، ويقولون عنك إنك إنسان مهذب ومتخلق ومواطن صالح، يريدونك أن تكون كذلك ولا يهمهم إطلاقا عذابك وآلامك وحريتك وهواجسك، اِفعْل أي شيء في الخفاء حتى ولو تاجرتَ بالأعضاء البشرية أو قتلت البشر، المهم مواظبتك على حضور صلاة الجمعة وأفراح المجتمع ومشاركتك الناس أتراحهم وأحزانهم، شهادة المجتمع ضرورية للغاية لمواصلة حياتك بالإيقاع البطيء نحو حتفك، على كلّ، نحن الذكور لنا إمكانية العودة إلى صفوف المجتمع والتوبة، يكفي أن تلبس عباءة بيضاء، وتطلق اللحية، وتلتزم الجماعة وتحضر أوقات الصلاة في موعدها، لتتغير تدريجيا نظرة المجتمع إليك، حبذا لو كان لأحدنا فرصة لقضاء فريضة الحج لمحو كل الخطايا والذنوب والجرائم، أما الإناث فالأمر مختلف كما قالت لي خديجة، توبتها لا تنفع مهما فعلت، فنظرات التأنيب والاستهجان تلاحقها مدى الحياة، حتى لو نزلت في حقها آية من السماء السابعة.

في صبيحة اليوم التالي، نهضت بروائح كريهة فيها مزيج من التبغ وبقايا نبيذ رخيص، يجعل من الإنسان يكره فيها نفسه كفريسة متعفنة نتنة، الاستحمام أصبح ضرورة قصوى لإزالة آثار ليلة سيئة وآثار لقاء غير محمود. من سخريات الأقدار أنني الشخص النقي أصبحت قاب قوسين أو أدنى من التعفن والأشخاص

الذين عفّنوا عالمنا يظهرون أكثر لياقة وأكثر إشراقا، لو وضعني المجتمع في كفة والإرهابي في كفة، بالتأكيد لا أساوي شيئا أمامه، ككتلة مهملة، مادام ذلك الشخص له سيارة رباعية الدفع فخمة وله رصيد ضخم وأعمال، فتاريخه سيء السمعة يمكن تبييضه بسهوله أو التقليل من أهميته فهو محميّ قانونا ومحميّ اجتماعيا وتاريخيا، وحدهم الضحايا لا يغفرون له، يشدونه من تلابيبه ويصرخون فيه، من أعماقهم، في وجهه ليلا نهارا. بعد الاستحمام، كنت غائبا كليا عن الحاضر، شعرت بانتعاش حقيقي وأنا أخرج من الدوش، لكنني مازلت مشدودا إلى لكحل في سيارته الكحلاء، أخشى من شيء واحد، أن يستفيد أيضا من الرحمة الربانية، لأن هذا الشخص مثل غيره جاهد في سبيله وفي سبيل دينه ومن أخطأ فله أجر واحد.

نظرت إلى الهاتف في يدي فوجدت عدة مكالمات لصديقي بونوار، حاول الاتصال دون جدوى لأكثر من عشر مرات ليلة البارحة ! اتصلت به مجددا،

– أهلا بك صديقي بونوار، عذراً، كنت خارج الوعي والمكان والزمان .

– أهلا بك عواد، هل ذهبت إلى الحانة بدون أن تدعوني ؟

– والله يا بونوار لم أخطط لذلك، دخولي للحانة لم يكن مبرمجا ولكن نوبة الغضب جعلتني أدخل البار رغما عني .

– معليش، أنت إنسان رائع، أحب أن أكون برفقتك.

– أظن أنك حدّدت مصيرك مع خديجة ، كنت قبلها أنتظر ردود أفعالك .

– والله خديجة امرأة جميلة ورائعة، إنها امرأة ناضجة.

- بصحتك يا بونوار .

- أنا ممتن لك يا صديقي، لك مني جائزة !

- استقرارك أكبر جائزة لي .

فرحتُ لهذه المكالمة، كان منشرحا وفرحا، تبينت سعادته من نبرات صوته، فكرت في خديجة، لا شك أنها تخرج من أفكارها الضجرة والمملة وثرثرتها إلى عالم أقل ضجرا ومللا، وأقل ثرثرة. أنا سعيد بلقاء بونوار وخديجة سأتفقدهما لاحقا، سيختفيان نهائيا من مشهد الحياة ليعيشا تفاصيل حياتهما بزخمها وآلامها ولذتها، فلا غرابة أن أبقى وحدي وأحتسي وحدي النبيذ الرخيص، ولن يكون في مقدوري تلذذ البيرة الألمانية الجيدة.

ما حكاية عبد الهادي ؟ كنت أسير في إحدى أرصفة المدينة عندما تذكرت صاحب الكلونديستان، مرت سيارته بجانبي وهو يحمل زبائنه في اتجاه ما، ذلك الرجل فارع الطول، أسمر الوجه لوحتّه أشعة الصيف واستنشاق بنزين السيارة منذ أن اشترى هذه السيارة القديمة المتهالكة كما قال ذات يوم، يسترزق من سيارته القديمة لنقل الأشخاص إلى كل الاتجاهات، أذكر أنه كان يتكرم عليّ بتوصيلي من مكان إلى مكان آخر، يخفّف عني المسافات، وذات مرة قال إنه يشبهني ! أبوه قتل في خضم الثورة من طرف "الفلاقة"، وكان هو صبيا، ربما أنه يحمل الضغينة نحو قتلة أبيه، على كل هذا ما قال له لي عمي الجيلالي ولا أعرف تماما صحة هذه الأقوال من عدمها، الأشياء التاريخية الصادمة تغيّر مصير الأشخاص والأشياء، تحفرعميقا فيهما، وتنحت بآلامها ندوبا تتجاوز التاريخ ذاته وتصرّ على الاستحضار، وإعادة الاستحضار بطريقة لاتخلو من الفانتازيا والعنف أحيانا.

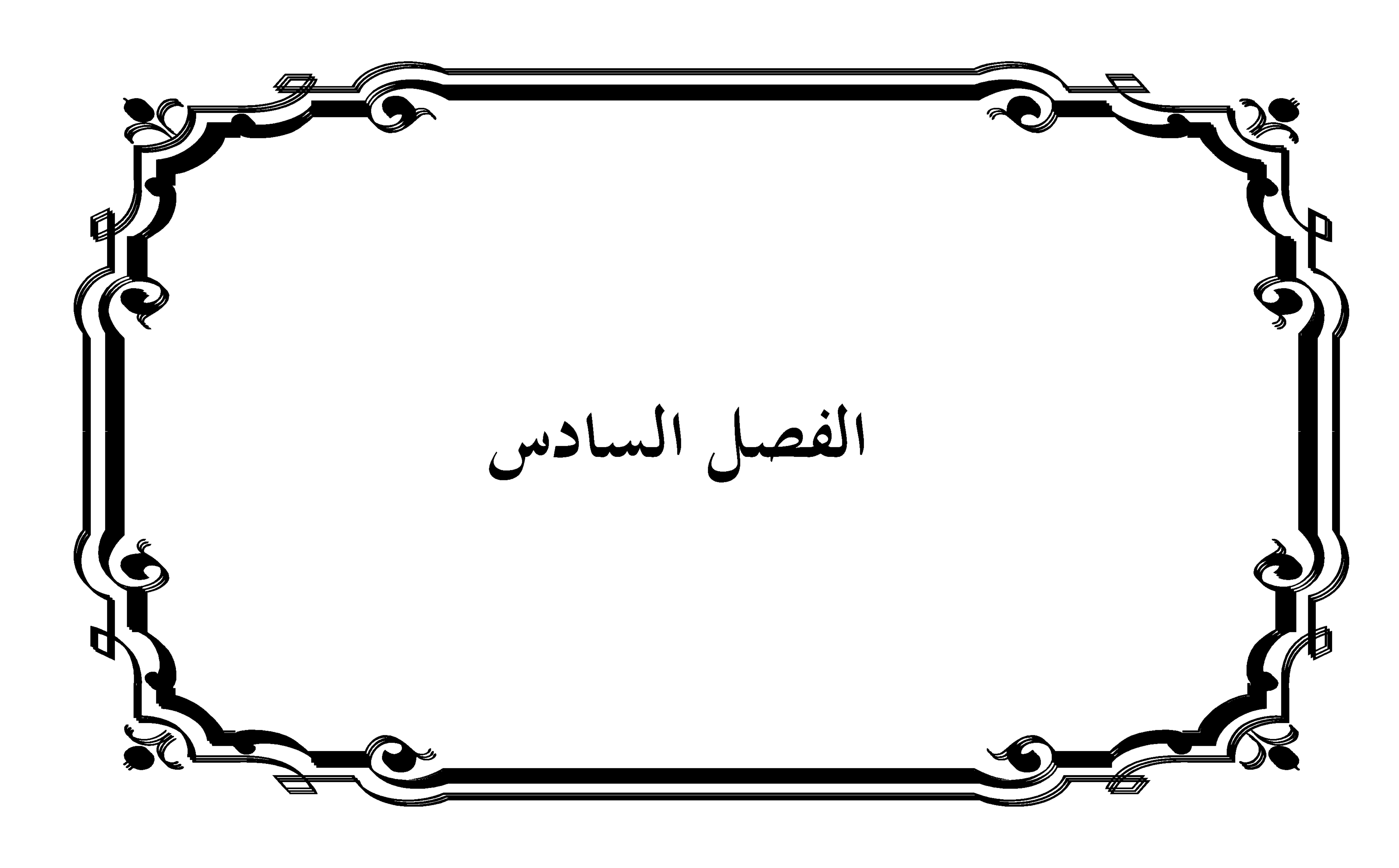
أرجأت عملية الاستفسار عنه إلى وقت لاحق، حتى عمي الجيلالي كثيرا ما كنت أصادفه وألتجيء إليه في كل صغيرة وكبيرة، لم أعد أسأله منذ التقينا آخر مرة في حانة الكتوبية، يبدو أنه منهمك في كتابة مذكراته، قال لي ذات مرة إنه يدوّن كل صغيرة وكبيرة عن حياته، يكتبها بلغة فولتير، لغته التي تعلّمها من الفرنسيين أنفسهم، لقنوه إياها منذ نعومة أظفاره، يخوض تجربة اختزال الحياة في كلمات قد تفي بالغرض الذي من أجلها يكتب ويدوّن، وقد لا تفي بالغرض لقصور في موهبته أو عدم امتثاله لفن البوح، هناك دائما معوّقات وعراقيل وحواجز نفسية أو لغوية، المؤكد أنه يملأ ذلك الفراغ الذي يحيط به من كل جانب. شهد عمي الجيلالي إلى الآن كل مراحل الجزائر الحديثة سنوات الثورة بكاملها وهي سنوات الطفولة وسنوات الاستقلال ومتاعبه مع الحزب الواحد، ثم مرحلة ما بعد 88 بعد انضمامه إلى الحركة السياسية الجديدة مع حزب جديد، ثم سنوات العشرية السوداء، وأخيرا المرحلة البوتفليقية، أو ما يسمى بمرحلة المصالحة الوطنية التي لم يجن منها الشعب سوى السير مع جلاديه جنبا إلى جنب، عمي الجيلالي من أكثر المعارضين للمصالحة الوطنية وقانون الرحمة أو قانون اللاعقاب. قال لي في إحدى جلساتي القليلة معه إنه لا غرض له سوى ترتيب أفكاره، لملء الفراغ. يعتقد اعتقادا جازما أن هذا الفراغ هو ما يقلقه أكثر، من رحم الفراغ يولد العبث، يشهد في مذكراته سقوط التاريخ والإنسان في جدلية معقدة يرهن فيها مصير الوطن ! كنت ألومه على سوداوية أفكاره، لكنّي اكتشفت أنها قناعاته التي لا يحيد عنها، نظرته للواقع لها ما يبررها من ميوعة في الأوضاع السياسية ونوعية الأشخاص في هرم السلطة، نزولا إلى أعضاء المجلس البلدي في بلدته الصغيرة، قال الوضع أكثر انسدادا ومنه أستمد كل مبررات تشاؤمي.

اشتقت إلى عمي الجيلالي، وجودي معه أشبه بمواجهة التاريخ بزخمه وسيرورته وأحداثه، وحده عمي الجيلالي يجعل التاريخ أكثر ديناميكية وهو يقص عليّ شذرات من مذكراته التي لم يدرجها في مذكراته، أعترفُ أنه ذات أمسية، أسترسل في بكاء حار أحسست بالشفقة على هذا العجوز، مسح دموعه وأكّد لي أن البكاء هو عملية تطهّر وتحرّر إنسانيين. طلبت عمي الجيلالي في الهاتف لأجل رؤيته والاطمئنان عليه.

انتبهت فجأة لاسم عبد الهادي، هو الاسم عادة ما يسمّي به أهالي هذه المدينة أطفالهم تيمنا بالوليّ سيدي عبد الهادي نزيل مدينة المطمر منذ قرون خلت، منطقيا وجود أحد ما في المطمر باسم عبد الهادي يعني أنه من مواليدها، أما صاحب الكلونديستان المسمى بهذا الاسم ربما يرجع ذلك إلى أمه أو أنه مجرد انتحال صريح لهذا المدينة، الغرباء اللامنتمون للمدينة ذلك الفضاء لا يمكن الفصل فيه بين الزمن والمكان، يحاولون بشتى الوسائل الانتماء لذلك الفضاء قد يكون الاسم واحداً من الأشياء التي يجعل الانتماء ممكنا. ربما نية أو محاولة انتماء عبد الهادي لها ما يبررها.

عمي الجيلالي هو الوحيد الذي يساعدني في معرفة هذا الشخص، الذي عاد إلى ذهني بقوة يكاد يكون هوسا آخر، من يكون هذا ؟ وبدأ يؤرقني بقوة، حقيقة الأمر أريد أن أحسم المسألة نهائيا.

اتصلت بعمي الجيلالي لأطمئن عليه وأخبره بنيتي في معرفة هذا الشخص لأتخلص من هوسي الذي أصبح يتعاظم مع مرور الزمن.



الفصل السادس

في عطلة نهاية الأسبوع، رتبت أشيائي وركبت سيارة عمي الجيلالي في اتجاه وهران، لعمي الجيلالي صديق نافذ متقاعد، كان يشغل ضابط الشرطة القضائية، أمضى عقداً من الزمن في مكافحة الإرهاب، تلقى تدريبات مكثفة ومعمقة في مكافحة الجريمة، في فرق مختلطة ميدانية أو في عمله الإداري العادي، عمي الجيلالي أشار لي قبل أيام بعد لقاء به، أدلى لي بمعلومات خطيرة أنه كان مرتبطا بالعمل الإرهابي، كانت هناك شكوك حول مساندته للإرهاب ضمن شبكة محليّة بالمنطقة الصناعية بأرزيو، هكذا أخبره أحد معارفه الذي تقاسم معه الإقامة في قاعدة الحياة بعين البية، عمي الجيلالي تحت إلحاحي بمعرفة المزيد عن هذا الرجل، اتفقنا أن نزوره في مدينة قريبة من وهران "حاسي الطويل"، حيث إقامته. كانت الساعة الثامنة عندما انطلقت بنا سيارة عمي الجيلالي في طريقها إلى وهران، قال لي هذه فرصة لألتقي ابن مدينتي وصديق طفولتي "الحاج الطاهر"، شغل لسنوات طويلة منصب ضابط الشرطة القضائية، له معرفة جيدة بالمنطقة الصناعية، قبل العاشرة صباحا كنا أمام منزل الحاج الطاهر، تم ترتيب هذا اللقاء بوسائله الخاصة، قال لي عمي الجيلالي، كنت أحتفظ بعنوانه نظرا لأن ابني المهاجر تعرض لمضايقات جمركية بسبب إحدى وثائق سيارة أجنبية، لحسن حظك أنني لم أفقد الاتصال بالحاج الطاهر.

وقفنا أمام منزل فخم للحاج الطاهر، مكان هادىء وبقينا ننتظر إلا أن خرج علينا الحاج الطاهر بشخصه أمام بيته مرتكزا على عكاز، كان رجلاً تظهر

عليه ملامح الشيخوخة، شعر أبيض ووجه أسمر، متوسط الطول وبطن منتفخ بارز أمامه. بعد تحايا متبادلة، دعانا إلى دخول بيته، أخذنا أماكننا في صالون البيت الفاخر، جلست على الكنبة منفردا وتركت عمي الجيلالي مع الحاج الطاهر جنبا إلى جنب، يتجاذبان الحديث عن سنوات طفولتهما، كنت أستمع إلى شطر كبير من ذكرياتهما، في المدرسة، رحلات الصيد الطفولية، سرقة الفاكهة من البساتين، وكثير من الحماقات إلى أن وصل حديثهما إلى مأساة "العشرية السوداء"، أسهبا في حديثهما عن تلك المرحلة بكثير من التفاصيل والأسرار، كنت أسترق النظر إلى ساعة الهاتف وأنا أرتشف مشروب الفاكهة البارد المنعش، نسي صديقي أن يقدمني للحاج للطاهر، تدارك الأمر عندما خاضا في الحديث عن المنطقة الصناعية لأرزيو، حيث تم اكشاف شبكة إسناد انطلاقا من أعالي المنطقة البترولية، هذه المنطقة كانت تشهد زوارا من نوع خاص. قال الحاج لخضر، كان أجانب يتوافدون من الباكستان ومن السعودية والأردن ومصر وأيضا فرنسيون، قال له كنا نتتبع آثارهم وأماكن إقامتهم وتنقلاتهم وصل الأمر بهم إلى أن يذهبوا إلى مكان محدد قريب من سيق لأجل الدعوة والتنظيم تحت ذريعة الدروس المحمدية، من خلال تجربتنا الميدانية، من المفارقات العجيبة يتخذون من المناطق الصناعية العمالية حيث يوجد النفط يوجد الزفت. أخبرعمي الجيلالي جليسه بسبب زيارته، قال له إذا كان بإمكانه معرفة المدعو عبد الهادي الذي عمل في GPL2لمدة أكثر من عشرين سنة، سجّل الحاج الطاهر الاسم، قال له لي معارف هناك في أجهزة الأمن ويمكن أن يفيدوني بمعلومات مهمة في هذا الشأن. لاحظت أنه يستعمل بتحكّم المصطلحات القضائية والقانونية وتلك المتداولة في العرف الشُرَطي، رغم ضعفه لأنه يظهر أنه رجل حازم ودقيق في حديثه على

عكس صديقي عمي الجيلالي يسمي الأشياء بمعاني ومفاهيم تقريبية كتلك التي نجدها في الجرائد، وتلك المتداولة بين الأفراد العاديين.

انتهت الزيارة وخرجنا من عند الحاج الطاهر بعدما أمضينا وقتاً لم يشعر به عمي الجيلالي، أما أنا فكان نظري موجّها إلى ساعة الهاتف كما أعتدت عليه في الوظيفة، لأنه لم يحدث أنني أحببت عملي واتحدت معه بصفة مطلقة، كل مساوىء الإدارة تشربتها؛ من تلكؤ وتذمر وتأجيل وكثير من الكذب وإساءة الظن، وميكانيكية في العلاقات مع الناس وضحالة شخصية، الظروف المهنية تجعلك ميالا إلى الثأر من القهر الذي تمارسه الإدارة، دون دراية منا نتحول إلى أشخاص فاسدين كثيري الشكوى، وقبل الوصول إلى عتبة التقاعد تستحيل إلى كائن متصلب، متحجر، آلي وفي كثير من الأحيان إلى آداة معرقلة لجهود الإدارة فتتجلى البيروقراطية في أسوأ حالتها، يدفع ثمنها المواطن، أغلب الذين شارفوا على أعتاب التقاعد يخشون أن يخرجوا إلى الحياة الثانية ما بعد الوظيفة بدون خسائر تذكر، يخشون من المتابعات الإدارية والقضائية، فالعمل في العرف الإداري بخواتمه، الزملاء الذين أحيلوا على التقاعد كانوا يقولون لنا " نخرج فقط على خير، لا نطلب شيئا آخر "ولا نتوانى في النظر مطولا في ساعة المعصم أو ساعة الحائط المعلقة على باب مدخل الإدارة.

كنت دهشا للحاج الطاهر وهو يورد لصديقه بعض التفاصيل عن الإرهاب والشبكات الإرهابية المستترة أو النائمة التي تتلقى إيعازاً بالتحرك أو التوقف، لأول مرة أسمع أن هناك إرهاباً مصطنعاً أو مستحدثاً من طرف أجهزة الأمن، وظيفته توجيه الرأي العام والإعلام واستثارة خوف وذعر المواطنين لأجل الحصول على

بعض المكاسب السيكولوجية والسلوكية والإعلامية والسياسية والأمنية، دورها دور تلك النيران التي تضرم جزئيا في الأراضي للسيطرة على الحرائق الكبرى، قلت في نفسي لا شك أن هناك ضحايا ؟ هكذا هو منطق أجهزة الأمن تتحوّل تدريجيا إلى إرهاب مقنع لأجل ذرائع يعتبرونها إنسانية، أذكر أنني قرأت كتابا ل"محمد سمراوي" رغم بعض الإدعاءات فيه بسبب تهور الكاتب ولكن هناك حقائق مثيرة، جعلتني أغيب عن وعيي تماما لأكثر من شهر، وأنا لا أصدق ما يحدث في هذه الأرض من مؤامرات خسيسة في الجانبين، الإرهاب والإرهاب المضاد. رغم كل شيء كنا مثل الخراف يدفعوننا يمينا والآخر يدفعنا شمالا، أحدهما يمثل دور الراعي والآخر يتقمص دور الذئب، ربما الراعي له مبرر للحفاظ على ماشيته ورزقه، أما الذئب مهما كانت أسبابه ودوافعه فأعماله غير مبررة وغير أخلاقية ووحشية من وجهة نظر إنسانية بحتة. الذئب يبقى ذئبا.

عدت مع صديقي عمي الجيلالي في سيارته ونحن نتحدث ونناقش تلك الحقائق الصادمة، الملتهبة، المدهشة، السوداوية، حركت فينا هشاشتنا وهواجسنا ومخاوفنا وإرهاصاتنا. كنت بحاجة إلى نبيذ خالص يصرف عني علائق الذاكرة وشوائب الماضي وإرهاصات المستقبل، رجل يتجاوز حاضره وماضيه الغارقين في أوحال الوعي المشّوه، مهما أنكرت من حاضري أو عدم استساغته فيعود إلى درجة التشوّش المتعمد والغموض المفتعل أو الوعي الزائف، نقاوة الرؤية منعدمة، أنا بحاجة إلى المزيد من النبيذ لأثأر من واقعي. كنت أعبّ النبيذ الأحمر في غياب جليسي الدائم بونوار، مرت أسابيع ولم يعد يدعوني إلى تلك الجلسات والأمسيات الرائعة، ربما وجد ضالته مع خديجة، أعلم أنه في أحسن أحواله سيصمت إلى الأبد، سينتمي إلى عالم الانشغال بالتفاهات. هذه التفاهات تقتل

أجمل القصص، تنهي تلك الأصوات التي تحاول الاحتجاج أو اختلاق عالم موازٍ لواقعها. الفراش له أسرار أخرى تكتم أكثر الأصوات تمردا، أتذكر أحد الأصدقاء الندماء عندما أسرّ لي بسرّه أن السرير دوره مثل دور ترويض الأحصنة البريّة، الحياة الزوجية تجعل من الحصان البري قابلية للركوب والنكز والإلجام والإحجام. يبدو أن صديقي بونوار أُلجم بشكل أكثر ما يريده منه المجتمع، أما خديجة فتجد سعادتها في وهم كاذب، وهم الزوج القريب، الحاضر الذي يملأ فراغها. ما يغيظني حقا أن أعود إلى تلك المسافة الأربعمائية أعبرها في كل المواسم، في كل الظروف كآلة بشرية تسير إلى حتفها بتؤدة وتأنٍ، أشعر ببعض الطمأنينة في عالم الحرائق وعالم المؤمرات والعوالم الأخرى السفلية التي لا نعيها، هي نفسها العوالم التي تحركنا وتوجه مصائرنا دون شعور منا بوجودها، قد تتشابه الأيام حولنا أو نشعر بها هكذا لبلادتنا وجهلنا بحاضرنا مما يزيد تعقيد أفقنا، ولا يكون في مقدورنا ضبط بوصلتنا، العالم معقد حولنا أيما تعقيد، الحاج الطاهر جعله أكثر وساخة وتلوثا وإشكالا، ومول الكلونديستان جعله غريبا يثير الأسئلة والاستفهامات، وبونوار يحفر لنفسه قبرا أكثر راحة واستقرارا، وأنا بين هذا وذاك أكثر ضياعا، عمي الجيلالي لا شك أنه يضفي على مذكراته بعض التوابل والبهارات لتكون أكثر قبولا في عالم ينتقل من الملل إلى الإثارة، أعلم أنه يسجل كل هذه المشاهد، يدوّنها، يقيدها وهو على حافة الرحيل، لم تتسنّ له فرصة التعبير عن حياته، في سنوات نضاله الحزبي الأفالاني، قمع صوته النشازي وطرد من الحزب لأفكار لا تروق لهم، يقول الآن كلمته، لأنه من الضروري قول كلمة، كلمة عتاب لشخص بعينه. أعترف أن أجمل الكتابات هي الكتابات على حافة الرحيل، كتابات تقول كل شيء دفعة واحدة، زبدة الحياة أشبه بصراخ في وجه هذا العالم، صببت آخر ما تبقى من نبيذ في

كأس تبدو أكثر حضورا مني، زجاجة خمر تقف في وجهي تراودني على الغياب. نهضت أصارع كل أشكال الغيبوبة التي تشدني إلى غياهب الذات ومتاهات النفس أكثر ما تشدني إلى عالمي البئيس ذي البعد الوحيد.

الآن أنا وحدي أصارع الوحدة الليلة، ليلة نوفمبرالعظيم، سنحتفل بها ونحتفل بالشهداء، نستحضر أرواحهم الطيبة في موائدنا وجلساتنا، نذكرهم بخير، نحن البسطاء الذين يحتفلون بقلوبهم، نقشر حبات الذاكرة ونخرج منها لباب التاريخ وتضحياتهم المجيدة، السياسيون والفلكلوريون والأغنياء ورجال الأعمال والسوناطراكيون وشاربو الويسكي وموردو الفيراري والمرسديس وأصحاب المقاولات لا يهمهم أمر الوطن، إن كان تحت الاحتلال أم مستقلا، نحن البسطاء فقط من يحرس الوطن، ويبكي على ضياع الوطن ويحمل السلاح للدفاع عن الوطن، إذا أردتم معرفة الذي حمل السلاح وبات في العراء وترك أسرته بين أنياب الجوع، اسألوا التاريخ ؟ اسألوا إن كان هؤلاء يحملون ذرة من حب الوطن، قلت في نفسي من أسأل ؟ أنا وحيد في هذا العالم، أُرغمت على الوحدة، صديقي بونوار صمت نهائيا، وعمي الجيلالي منهمك في سيرة حياته، ووردية شبه غائبة عن مسرح الأحداث، المشاكسة خديجة يبدو أنها وجدت لمشكلة الغياب قِبلة تحج إليه كل ليلة، كانت تتراءى هذه الشخصيات وهي ترحل أمامي، يبدو أن زجاجة النبيذ "تلمسان" هذه من النوع الرخيص، الأنواع الرخيصة تشعرك أنك أكثر وحدة، أكثر حزنا. من حق البسطاء والمغبونين الاحتفال بنوفمبر العظيم، لأنهم لا يزالون يحلمون بالوطن، لأجل مكان لهم في هذا الوطن، الأثرياء لا حاجة لهم بالوطن. تذكرت هذا وتلك الصور الماثلة أمامي، في التسعينيات في فترة الإرهاب الأسود، أن كل الأثرياء في مدينتي تحوّلوا بمصانعهم ومحافظهم إلى المغرب وتونس

وفرنسا وإيطاليا، بعدما شبعنا دما وقتلا وظلما، عادوا إلى الوطن، لن أتمم المقولة.. الجميع يعرفها، لن أبوح بها، لأن بلدي تحوّل إلى بورديل كبير يحترف فيه كل أنواع العهر.

وردية وعبد الهادي في الضفة الأخرى للتاريخ، نوفمبر لا يعني لهما شيئا، يأتي ذلك اليوم يستفزهما، يوجه لهما الشتائم ويمضي، كما تمضي الأيام، كما ذلك العجوز المجنون، يدخل مقاهي المدينة باكرا، يوجه سبابه، يشتم ويلعن رواد المقهى ويمضي ليعود بعد شهور، يرمي بحمولاته في وجوههم ويختفي، العجوز المجنون لا يؤذي أحدا والرواد لا يأبهون له ولكن هناك من يتكيء على يومه هذا، فيتحول إلى جحيم حقيقي. في غالب الأمر عبد الهادي ووردية يتكئان على أيامهما وعلى ما تبقى من أيامهما.

كعادتي نهضت صباحا، ارتشفت قهوتي وأشعلت سيجارتي وأنا أفكّر في كل شيء دفعة واحدة، أفكر في الحافلة التي تقلني إلى المطمر، وتلك الوجوه العابسة الصباحية، أفكّر في مسافة الأربعمائية التي أقطعها بمحاذاة بساتين الزيتون صعودا إلى مقر القسم، أفكر في الوظيفة التي رغم السنين الطويلة، لا تزال كل الصباحات غير مشرقة، تقبّلني بشفتيها الكريهتين، اغتصبت آدميتي وزهرة العمر مقابل لا شيء، لا شيء تقريبا، جعلتني أحتضر لمدة أطول، أطول مما يتحمله إنسان في مثل ظروفي وإمكانياتي النفسية والشعورية، رحلتي ليست سوى بحث عن راحة وسلام أبديين.

صعدت حافلة النقل، وهي تتهادى في الطريق كـ"صلاح النوادر"، من موقف إلى آخر، كنت أتحسس جيبي لإشعال سيجارة، استدركت أن التدخين محرم، رغم

أن رائحة المازوت في الحافلة أقوى من رائحة التدخين ألف مرة، روائح العرق وروائح الأجسام جراء الازدحام يجعل تنقلاتي أكثر عسرا وأكثر اشمئزازا، الصبر ينفذ ولا أجد لنفسي مخرجا، أكثر السيناريوهات التي وضعتها بعد مغادرة الإدارة هي كيفية إطعام الأفواه المفتوحة على الدوام. الديون تتراكم، الاستدانات تأخذ منعرجات خطيرة، أحيانا أتهرب من دفعها ببساطة لأنه ليس بمقدوري دفع الديون في آجالها، أعيش أسير وجودي وظيفي، بنكي من الصعب الانفكاك عنه بسهولة، يجب أن تكون جرعة مضاعفة من الأموال للحصول على جزء من الاستقلالية، لا أحد يعرف أنني أسير إلى حتفي بتؤدة، ويمنع عليّ أن أعشق أو أحبّ أو أشبع رغاباتي أو أدمن أو أسكر أو أواعد الفتيات الجميلات، فالأمر يتطلب ليالي رومانسية وهدايا ومصاريف إضافية والتظاهر بالأبهة التي تتطلبها ليلة سريرية عاصفة. وطأت عتبة القسم و وجهت رأسا إلى مكتبي المغبر جلست على الكرسي المتداعي لتتشكل صورة بورتريه لوجه متعب.

طيف من المحبة وإشعاع من العشق بدأ يلوح أمامي يتحدى شبحي الصباحي المكتبي، اشتقت إلى وردية، شوق يزيد من إنجذابي نحو هذه الآدمية كأنها مخلّصتي الوحيدة من هذا العالم الكئيب الذي أحياه بتفاصيله، هذه المرة سوف ألتقي بها وأضمها إلى صدري وأطوقها بذراعي وأبكي بكاءً حارا استنفذ آخر الشحنات العاطفية التي تترسب في أعماقي، أريد أن أحلم على صدرها كل أحلامي طفولتي وشبابي، أفرغ كل مكبوتاتي، عقدي، ترسباتي، شهقاتي العالية، آمالي وآلامي. وحدها تشعرني أنني على قيد الصبر وتجعل لي معنى لحياتي، ومبرراً مقنعاً لوجودي على هذه الأرض. انهمكت في عملي المكتبي المعتاد ليدخل عليّ عمي الجيلالي على غيرعادته، عمي الجيلالي سبق له أن عمل في هذه الإدارة

البائسة ولـم يجن منها سوى الذكريات البائسة والصور الشاحبة لحياة لم تكن كما حلم بها في إحدى مراحل حياته، دخل عليّ وهو لا يزال يتفرس بعينيه في جدران المكتب، تمتم بكلمات لـم أفهمها، كتحية المكتب أو ما شابهها، طلب مني أن أنفرد معه خارج المكتب ليخبرني بالجديد، وقد أوصيته بإلحاح أن يخبرني عن أي مستجد يخص عبد الهادي سواء في هذه البلدة أو في مكان عمله السابق بفضول يدفعني دفعا لمعرفة المزيد عن هذا الرجل الذي يلفه الغموض. قبل أيام كان التفكير فيه كفرا تزامن مع احتفائي بليلة نوفمبر المجيدة، ليلة البسطاء، ليلة الطبقة الهشة من المجتمع، وحدهم لهم الحق في الاحتفال.

انزويت مع عمي الجيلالي عند عتبة القسم، وأخبرني أن عبد الهادي فعلا كان عضوا في شبكة الإسناد الإرهابية وجمع الأموال، وقد وجهت له تهمة أخرى تتعلق بسرقة موصوفة باقتحام سكن أحد الخواص والاستيلاء على وثائق خاصة، قضى أربع سنوات حبسا ليطلق سراحه بعدئذ لانعدام أدلة في التهمة الأخيرة. كنت أستمع إليه بإهتمام شديد و هو يقص عليّ جانبا من نشاطه المشبوه. قال لي هذا كل ما أملكه عن صاحبنا عبد الهادي. شكرته على عناء قدومه إليّ وتكبّد المشاق لأجل قضية لا تخصه. طلبت منه موافاتي بتفاصيل أكثر حتى أشبع فضولي، يظهر أن هذا الرجل خطير، ويريد توريطي في مشاكل ما خطيرة، هذا هو سبب اهتمامه بي الفجائي غير المبرر. يا إلهي ما الذي جعله يهتم بي ؟ استدرك عمي الجيلالي شيئا آخر، قال لي إن له صديقاً نصف مجنون قضى معه فترة السجن، ورافقه طيلة سنوات حبسه الأربع دلّني عليه سي الطاهر، تنتابه حالة جنون فجائية وهلوسة أحيانا، أكيد لـه أسرار عن عبد الهادي، تساءلت كيف لعبد الهادي عاد إلى عمله بعد جرائمه المقترفة في حق الأشخاص، وفي حق الوطن ؟

لعل قانون الرحمة سيء الصيت قد شمله ! ربما حصل أيضا على تعويضات مثل غيره مع الاعتذار. هو الآن ينعم بتقاعد مريح ولكن.. بنفس قلقة. أعدت نفس التساؤل على عمي الجيلالي بصوت مسموع. قال نعم أتفهّمك وأتفهّم قلقك، أنا الذي قضيت العمر كله في الإدارة، وعندما تمّ تسريحي بالإضافة إلى بيان التقاعد كانت معي وثيقة أخرى تخصم ثلاثة أيام من مرتبي البائس، أخبرك يا عواد وقد زفر زفرة حارة أمامي: الشيء الوحيد الذي يجعلني أقف معك في حكاية عبد الهادي هذا، هو أنني أدرجتها في كتاباتي، أصبحت سيرة حياتي مرتبطة بك، ومرتبطة مع "المنكوب" عبد الهادي، لا أعرف كيف أصبح هذا الشخص يسيطر على هواجسي ويأخذ حيزا من تفكيري، لقد قفز إلى الجانب المظلم من اللاواعي، كلما كتبت فقرة أوضب و أرتّب فيها أفكاري يخرج عليّ عبد الهادي كالشبح في منتصف الحديث، ضحكت بشدة من اعتراف عمي الجيلالي وهو يبتسم بسخرية من هذه الحكاية. استطرد مواصلا حديثه، لا تخلو الحكايات من الأشباح، صاحبنا نقطة سوداء بحاجة إلى كثير من الأضواء، إلى كثير من البحث وإلى كثير من المخاطر ! رفعت رأسي إلى عمي الجيلالي عند هذه الكلمة منتبها لكلمته الأخيرة، قلت له عن أي مخاطر تتحدث ؟ نعم هناك مخاطر قد لا تخطر في ذهنك، إنك تعرّض الشخص هذا إلى الضوء الساطع، ربما فعل المستحيل لكي تبقى قصته غير معروفة للعالم، أو ربما يخطط لشيء أكثر سوءا، ونأتي نحن ببساطة وبدون مصلحة حقيقية لنشرّحه تشريحا، أردت أن أهدئ من روع عمي الجيلالي وبدا عليه أنه يتحدث إليّ بجدية وتخوّف، لا تخش شيئا عمي الجيلالي، هذا مجرد عمل أشبه بالنميمة لا يقدم ولا يؤخر. أنت تكتب مذكرة حياتك تواجه بها صفحاتك البيضاء وأنا أشبع فضولي بها، أعتقد أن عبد الهادي ليس بهذا

السوء. أدعوك الليلة لجلسة نبيذية مميزة نطرد فيها مخاوفنا وهواجسنا ويمكننا أن نتنازل عن متابعة حكايتنا عنه متى رأينا ألاّ مصلحة لنا في ملاحقته، انتبه عمي جيلالي إلى نفسه وقدّم لي عريضة افتتاحية لمحام وكّله في قضية سرقة موصوفة باستيلاء على أملاك خاصة، وقد أدانته المحكمة بأربع سنوات حبس قضاها في السجن إلى أن أطلق سراحه ،هذا ما قاله لي أحد معاوني المحامي الذي تابع قضيته ذات يوم. قرأت تلك العريضة وأنا أريد تبيّن معنى الأملاك الخاصة، قرأت جيدا العريضة بعين إداري متمرس، وضعت نظارات القراءة، فاكتشفت أن الأملاك الخاصة هي أغراض خاصة من بيت الضحية، حيث أن المتهم دافع عن براءته من سرقة تلك المحتويات الخاصة، وهي وثائق خاصة بعائلة المرحوم بلعباس، عمي الجيلالي كان ينتبه إلى كل حرف أقرأه له، أعرف أن حصيلته في اللغة ضعيفة ولا يستطع استيعاب اللغة القانونية إلا شذرات منها، أنا أحب عمي الجيلالي بفرنسيته الجميلة الصافية المتدفقة على لسانه بدون أخطاء، قلت له: هل فهمت حيثيات القضية، هزّ رأسه وقال لي ربما تجد تفاصيل أكثر في الحكم القضائي. وضعت الوثيقة في جيب معطفي وطلبت منه أن نذهب إلى المقهى لارتشاف قهوة ونقرّر مصير بحثنا، تذكرت ما سبق قوله أن له صديقاً نصف مجنون، كان أحد رفقائه في السرقة والاستيلاء على وثائق عائلة بلعباس. من تكون هذه العائلة يا جيلالي ؟ لا أحد يدري صاحبه المجنون يكون له علم اليقين، متأكد أنه يدلي لنا بمعلومات مهمة عن تلك القضية. هل تعرف كيف نلتقي به ؟ نعم صديقنا عمي الطاهر، يمكن أن يسدي لنا خدمة في هذا الشأن، يعرف كل شاردة وواردة في وهران. سأكتفي بالاتصال الهاتفي لعلّه يساعدنا، يجب أن نعد له هدية قيّمة. فهمت أن أدفع نصف الهدية، لا بأس ما دامت هذه الهدية مدخلاً لمعرفة المزيد من التفاصيل

عن قضية عبد الهادي التي أصبحت أكثر إثارة، يعني بالنسبة لي المزيد من بذل المال.

اشتركت مع صديقي الجيلالي واشترينا زجاجة "جوني وولكر" من النوع الجيد، قام صديقي بتغليفها بعناية وتوجهنا في سيارته من نوع "ريتمو" القديمة، كانت سيارته تتهادى ببطء، تحاشى صديقي الطريق السيار بسبب عدم الاتكال عليها، إذ لا يمكنها مجاراة الطريق بسهولة كالسيارات الحديثة، كنا ندخل القرى والمدن الصغيرة للاستراحة وتفقد محرك السيارة كل مائة كيلومتر تقريبا، وصلنا بعد عناء إلى مكان إقامة الحاج الطاهر، الذي انتظرنا كالعادة في صدارة صالته، ليسلّم علينا ويستقبلنا رغم ضعفه الشديد، ناوله صديقي هدية جوني وولكر، وهو من عشاق الويسكي وخاصة ريد لابال المميز، تبادلنا أطراف الحديث بمقدمات المجاملة وأخبره بسبب قدومنا، كنت أخشى من ضيق صدر الحاج الطاهر لكنه رضي بمساعدتنا، حدثنا أن عائلة بلعباس الوريثة الشرعية للثوري المجاهد المثقف أثناء الثورة التحريرية، كان منسقا جهويا لمنطقة الغرب الجزائري، تبوّأ منصب والي وهران لفترة ما بعد الاستقلال. وبعد انقلاب 19 جوان 1965 تمّ إعفاؤه من المسؤولية، كان مخ الثورة وأرشيفها، كان الوحيد الذي يستطيع أن يسير في كامل الغرب الجزائري إلى أقصى حدود الجنوب بعيون مغمضة، يعرف كيف يصدر الأوامر الثورية بصرامة ويتابعها، كان جهازا مخابراتياً متقدماً، يعرف التفاصيل قطاعاً بقطاع، بعد الانقلاب البومديني، آثر أن يبتعد عن فوضى السياسة، كان محل تحرّش من قبل النظام إلى أن توفي في سنة 73 تحت وطأة المرض، ترك زوجته الأرملة التي حاول الكثير أن يستولوا منها على الوثائق الخاصة بالثورة، التموين، التسليح، المخابرات، الرسائل، أسماء الشخصيات، الوقائع، الأوامر، تشكيل الفرق،

التنبيهات، المعلومات عن أفراد الاستعمار، العملاء، قضايا متفرقة، تحركات الجيوش والبيانات الصادرة والواردة للولايات والنواحي العسكرية، بلعباس محمد كان صندوق الثورة، ومستودع أسرارها، لخطورة الموقف والتعقيدات السياسية والظروف غير المواتية، حافظ على هذه الوثائق إلى آخر رمق، بالرغم من مرضه كانت السلطة تساومه على تلك الوثائق وقد استشعر الخطر بمعرفة نوعية الرجال الذين أرادوا النيل منه، لاستعمال هذه الوثائق لأغراض سياسية وسلطوية، لم يسلّم هذه الوثائق التي كانت في 15 حافظة أرشيف تقريبا، بسبب عدم الثقة من السلطات، لكن حدث في 96 أن اقتحم بعضهم بيت أرملته وسرقوا مجموعة حافظات أرشيف بعد تهديدها، وقد تعرفت على أحد أفرادها، تبين فيما بعد أنهم شبكة يعملون لجهة ما . المشكلة أن القضاء لم يولِ أهمية لمحتوى الوثائق ولا لأهميتها التاريخية، مجرد سرقة دون متابعات جدية وضاع الأرشيف من بيت العجوز وما تبقى استولى عليه أفراد الأسرة ولا أحد يعرف حقيقة الجهة التي وصلت إليها. هذا ما أعرفه، سأدلكم على زبير المجنون، قضى سنوات في السجن مع هذا..عبد الهادي بتهمة السرقة الموصوفة باقتحام سكن خاص، رأينا التذمر باديا على وجهه، وصلتنا أوامر عن توقيف البحث في القضية، ربما بسبب تكالب الإرهاب والوضع الدموي الذي آل إليه البلد، كنا نتصارع مع الإرهاب ليلا نهارا، وفرق الموت تضرب دون هوادة، والبلد قاب قوسين أو أدنى من الانهيار.

يمكنكم الاقتراب من قادة المجنون له أسرار خاصة، أعلمكم أنه ليس في قواه العقلية، خضع للعلاج في مستشفى المجانين لعدة سنين، تنتابه نوبات فجائية من الجنون، أغلب الظن أنه لم يفارق بيته العتيق في مسرغين.

استأذن صديقي الجيلالي مضيفه الحاج الطاهرالذي شكره على زجاجة جوني وولكر، وترجّانا أن تبقى هذه المعلومات طي الكتمان. لفّنا الصمت ونحن في طريقنا إلى البيت، لـم ننبس بكلمة إلى أن نزلنا في إحدى مقاهي مدينة ريفية، استمتعنا بارتشاف القهوة، كان كمّ المعلومات الذي أدلى به صديقنا الحاج الطاهر مقلقاً للغاية، استشعرنا الخطر، لكي نمضي في مغامرتنا هذه نحتاج إلى شجاعة وجرأة كبيرتين، قال عمي الجيلالي " نحن الآن في فم الغول". دوري كان التخفيف من خطورة المغامرة والمعلومات المتحصل عليها، حتى يمكن أن نواصل البحث والتحري في القضية، قلت له: إن هذه مادة جيدة لمذكرتك الشخصية، ردّ علي بامتعاض: صحيح تحولت مذكرة حياتي إلى قصة بوليسية !!، سأخبرك بشيء، أصبحت الآن أكثر تعلقا بهذه القصة، ومندفعا إليها اندفاع الشباب، يا إلهي أرجو حسن الخاتمة، اتبعتك فوجدت نفسي متورطا في قضية لا تهمني. قلت له ما الفائدة من تجاهل العالـم من حولنا، نحن بحاجة إلى تجربة حياتية تضفي بعض الأبهة على خواتم حياتنا، أربع وعشرون سنة وأنا أعيش عالما رديئا ومملا، نحن غارقون في وحل الحياة دون أن نخترق سذاجتنا، أعتقد أننا لا نخسر شيئا في هذه القضية. نظر عمي الجيلالي إليّ ثم أشار إلى سيارته المتداعية، موجها إليّ السؤال:"هل تعتقد أن هذه السيارة العاطلة تكمل مسيرتها في قضية صديقنا عبد الهادي؟ " قلت له إن كل الوسائل جيدة بشكل أو بآخر، حتى لغتك التي تكتب بها سيرة حياتك مهما بدت بدائية فهي وسيلة لإيصال الفكرة إلى أعماقك أو للآخر، المراهنة على الجواد الجيد الأصيل محض هراء، أنا وأنت سنصل آجلا أم عـاجلا، لا تهتم، وجودك معي يدفعني لطيّ المسافات المجهولة من قصة صاحبنا. حقيقة الأمر أنني مثل صديقي استشعرت المخاطر التي لم تعلن عن نفسها بعد،

دوري في هذه الثنائية تقوم على التخفيف من ضغط المخاوف وأحيانا المغالطة، صديقي الجيلالي يعي هذا الأمر، حبه لي وسيرة حياته كانا سببا في مرافقتي في قصة عبد الهادي.

كانت السيارة تعصر نفسها في الطريق، تئن أنينا حادا تحتنا، الحديد يأكل بعضه، ورائحة البنزين تصلنا من الخلف، أثّر على مواصلة حديثنا عن القضية التي نحن بصددها، كان يسوق بحذر شديد وينصت جيدا للأصوات التي تصدرها السيارة وهي تذرع الطريق، مثله كنت أسترق لأصوات ارتطام العجلات التي تأخذ نوتات أحادية أشعرتني بالعياء، وضعت قفاي على كرسي السيارة واستغرقت في نوم لا يشبه إلا النوم على ناصية الطريق. توقفنا مرة أخرى في أحد الطرقات الموحشة بجانب حنفية ماء برية، تزود بالماء، أعاد التحقق من محركه استبدل الماء، وصعدنا مجددا إلى أن أشرفنا على مدينة المطمر، ظهرت لنا كهضبة صغيرة تلفها بقايا غابة تستعد لغروب الشمس.

عدت إلى البيت مرهقا من تلك السيارة المتهالكة التي قطّعت أنفاسنا، وزادت من مخاوفنا وخشينا أن تتعطل بنا لساعات أوربما نبيت في العراء، رغم ذلك أعترفُ أن صديقي الجيلالي جريء إلى حد التهور، لم أكن أدري أن تلك السيارة بتلك الهشاشة وبذلك السوء. أصبحت الفرحة فرحتين؛ فرحة الوصول وفرحة الحصول على معلومات جديدة تعيننا على الإجابة عن بعض التساؤلات التي يمليها الفضول وتمليها القضية، نجحت في أن أستميل صديقي، فهو الحصان العجوز العنيد الذي يسير بخطوات ثابتة على أرض زلقة وخطرة.

أهم شيء أننا اطّلعنا على كثير من المشاكل التي يسببها الأفراد، أو يتسببون فيها في عالم يعجّ بالشر والسوء، يتخذون من الطيبين مادة لتوقيع كل مآسي الإنسانية الممكنة، أتذكر أنها آخر الكلمات قالها لي عمي الجيلالي وهو يركن سيارته أمام بيته. هوس السفر لا يزال يحضرني بقوة، تفاصيل القصة تحفزني بقوة، أسئلة متتابعة تنهش فضولي، ماذا بعد ؟ لماذا الوثائق بالذات وليس شيئا آخر ؟ من كان من وراء تلك العملية ؟ أين هي الآن تلك الوثائق ؟ لأي غرض تستغل ؟ تهاطلت عليّ فرضيات عدة، استسلمت لها، التعب آتى على آخر نفس ينبض بالرغبة لهذا اليوم، استلقيت على فراشي منهكا حتى بزغ ضوء النهار.

لم تكن لي رغبة في الذهاب إلى الوظيفة، عملت ما فيه كفاية، أصبحت الوظيفة خطرة عليّ كشخص فضولي على الأقل، أعترف أن هذه المهام الإدارية أسر للعقل والروح، نفس الحركات ونفس المهام أنفذها منذ أربع وعشرين سنة، لم يبق لي سوى بضعة أشهر على إتمام السنوات الخمس والعشرين من حياتي الوظيفية، لم أستفد إلا من دفع تكاليف الحياة الحيوانية، من مأكل ومشرب وملبس، وتكاليف الماء والكهرباء، لم أعش كما يجب أن يعيش الإنسان في زخم الحياة وتعقيداتها وأبعادها ولذاتها، أتذكر زميلتي حين كلّمتني عن أخذ فاصل زمني من الحياة للاستمتاع بها و منها، أعرف أن الإدارة أسوأ من الحياة نفسها، تجعلك مخدراً إلى حد لا تدرك الحياة نفسها ولا تشعر بها إلا بعد فوات الأوان، لحسن الحظ أنني أعرف هذا وأشعر به. لا مناص الآن من أن أذهب وأسجل حضوري في الإدارة، هذه أضحت أكثر غرابة وكأنني لم أنْتَمِ إليها يوما.

بعد تردد طويل، توجهت إلى الإدارة وكأنني زبون أوأحد مرتاديها وليس أحد مستخدميها، مشيت وأنا ساخط، أصرخ من أعماقي، أعي أن لا أحد يسمع صراخي، ركبت الحافلة الريفية في أسوأ حالاتي، الطريقة الوحيدة لأفك رباطي مع الإدارة هو الاستقالة، سرعان ما تهاجمني مخاوف من كل الجوانب، حتى تلك الشجاعة التي تدخل ضمن قيم الأفراد في وضعها الفطري أفتقدها، فعلا أنا منكوب العقل والنفس والروح، لا أقدم على أي خطوة دون مخاطرة، وحدهم الذين يخاطرون يربحون حياتهم وأنفسهم، زميلي في العمل قبل عشر سنوات غادر الإدارة إلى الأبد ولكنه ربح إنسانيته، هو الآن رجل أعمال ناجح وآخر افتتح مكتباً للاستشارات الهندسية والعقارية، أعلم أن هذه النماذج في غاية التبصر ومعرفة عواقب الالتصاق بالوظيفة كحيوان داجن ينتظر نصيبه من فضلات الأسرة، ويمكن لهذه الأسرة التضحية به في أي وقت شاءت.

مخاوفي ازدادت عندما شككت في صديقي العجوز عمي الجيلالي الذي لا أظنه يقوى على إكمال مسيرة البحث، وجوده معي في الأيام الماضية أشبه بمعجزة، ينقصه اندفاع وحماسة الشباب، وطموح عشريني، كان يحدثني وعلامات الذعر ظاهرة عليه.

قبلة صباحية لوجه الإدارة الكريه، ودخلت إلى مكتبي الشاحب ذي الحيطان الرمادية يشهد جل حياتي المهنية، مكتبي مثل القبر لا يشعرك بالزمن، الزمن لا يتحرك إلا بصعوبة.

هاتفت عمي الجيلالي، الساعة تجاوزت العاشرة صباحا، طلبت منه أن ألتقيه مساءً في مقهى بن عيسى المعتاد، الهاتف يرن للمرة الثالثة على التوالي إلى أن

سمعت صوته الضعيف الرقيق أقرب إلى الهمس، اتنابتني هواجس، لا شك أنه مريض، أعدت المحاولة حتى أطمئن عليه، كان فعلا مريضا، نهضت من الكرسي الذي أقبع عليه منذ أربع وعشرين سنة، وخرجت من القسم، استقلت سيارة أجرة بعد دقائق وصلت إليه، طرقت على البوابة الخارجية عدة مرات قبل أن تكلمّني زوجته من وراء الباب، من الطارق ؟ أنا ..أنا عواد صديق عمي الجيلالي ، صمتت لحظة لتفتح الباب الخارجي، قادتني نحو صالون البيت، ذلك الصالون الذي يحتفظ بطرازه الأروبي، صالة هادئة، تنعكس عليها أشعة شمس منتصف النهار، يبدو أنني لم آت في زمن ملائم، في إحدى أركان الصالة يتمدد عمي الجيلالي في فراشه وعليه غطاء جلد النمر، ورأسه مغطى بقبعة صوفية، اقتربت لأتبين وجهه، أزاح الغطاء بصعوبة وسلّم عليّ، كانت تخرج من مسامات الغطاء حرارة غير عادية، خير إن شاء الله، ردّ علي بضعف شديد، أخبرني أنه بغاية السوء وقد فاجأه المرض بعد سفره الأخير، كنت مهتما به وأنا أتفرس في وجهه وحالته، أتحسّس أنفاسه، رجوت له الشفاء، وأنا جالس أمامه، قال لي إن الحمّى شديدة عليه، هل هذا له علاقة بالسفر إلى حاسي الطويل ؟ وجهت له السؤال وأنا أرى صديقي في حالة ضعف شديد، هز رأسه بالإيجاب، نعم دوما الفرق الحراري يصيبني بالمرض، أنا لا أقاوم هذا، خصوصا أن جهازي المناعي ضعيف للغاية، أتأثر كثيرا بصدمات الحرارة منذ أن كنت صغيرا، بقائي في السيارة لمدة طويلة ثم النزول منها الفجائي يسبب لي المتاعب، كنت أستمع إليه باهتمام، وقد خالجني الشك في أن لا يستمر معي في قضية عبد الهادي، حالته الصحية باتت تشكل عائقا في مواصلة البحث، لم يعد يقاوم التعب والارهاق وخاصة أنه رجل مسن لا يقوى على الحركة التي تتطلبها هذه المهمات، طلب أن أشرب القهوة معه، اعتذرت فقط لأنني جئت

لأطمئن عليه، لحسن الحظ أنني فكرت فيك وانتابني بعض القلق لما كلمتك، بقيت لأكثر من ساعة إلى جانبه نتحدث رغم أن حديثنا تقاطعه نوبة سعال حادة. أخبرني أن مذكرته التي خصصها لسيرة حياته يريد أن ينهيها قبل حلول السنة الجديدة، يتخوف من عدم إكمال سيرة حياته، الشيخوخة والضعف الذي يعتريه لهما النصيب الأكبر في تثبيط مشروعه التدويني، قلت له أنا متشوق لرؤية كتابه، سوف أكون أول القراء الحقيقيين ويسعدني ذلك، نادى ابنه وطلب منه أن يأتيني بمخطوطته، بعد قليل وضعها الابن أمامي، تفحصت المخطوط بكثير من الدهشة والفرح، كان عبارة عن سجل ضخم لأكثر من مائتي صفحة محشوة بسطور وفقرات متداخلة، مكتوبة باللغة الفرنسية، رأيت كثيرا من الإنسابية في إحدى صفحاتها مع قليل من التشطيب والحشو الذي يأتي في المتن والهامش، مكتوبة بقلم حبر أسود، الصفحات غير مرقمة وكأنه يوحي بتشابه الأيام والليالي التي عاشها، بينما أنا أتفرس في سجلّه المدهش، قلت له كم استغرقت في كتابتها ؟ قال نحو ثلاث سنوات ونيف، بدايتها ذات ليلة في منتصف شهر مارس، كانت ليلة عشقية بامتياز، أردت أن أدوّن كثيرا من الأحداث التي مرت على حياتي، أدركت بعد مرور الزمن أن التافهين فقط يعتقدون باستمرارية الحياة، كتابي هذا هو تأكيد على أن الحياة لها معنى يقترب كثيرا من التفاهة، لم تطاوعني الحياة في كثير من الأشياء فأردت أن أثأر لنفسي بتدوينها في سجلّي هذا، أنظم فيها أفكاري، أوضبها وألعنها في نفس الوقت، من الصعب إيجاد معنى ملائم لحياتي، حياتي مشوشة مثل كتاباتي، تخلصت كثيرا من تلك المعاناة، كتابة هذه المذكرة تسير في نفس الاتجاه، تركت فراغات كبيرة بين السطور وبين الفقرات والفصول، لم أتمكن من سد فراغاتها، لم أتحكم في كثير من فصولها، لم تطاوعني كما أردت أن

تطاوعني، أعترف أمامك أنني كاتب رديء، لم أكن راضيا عمّا كتبته، لكن الجزء المتعلق بقضية عبد الهادي هو الجزء الأكثر إثارة، كان أفضل الأجزاء، سرت قشعريرة في أجزائي، شعرت أن عمي الجيلالي له روح مواصلة المغامرة التي بدأت معه دعوت له بالشفاء وخرجت مطمئنا من بيته، وصلت إلى مكتبي لأمضي ورقة الحضور وأعود إلى بيتي.

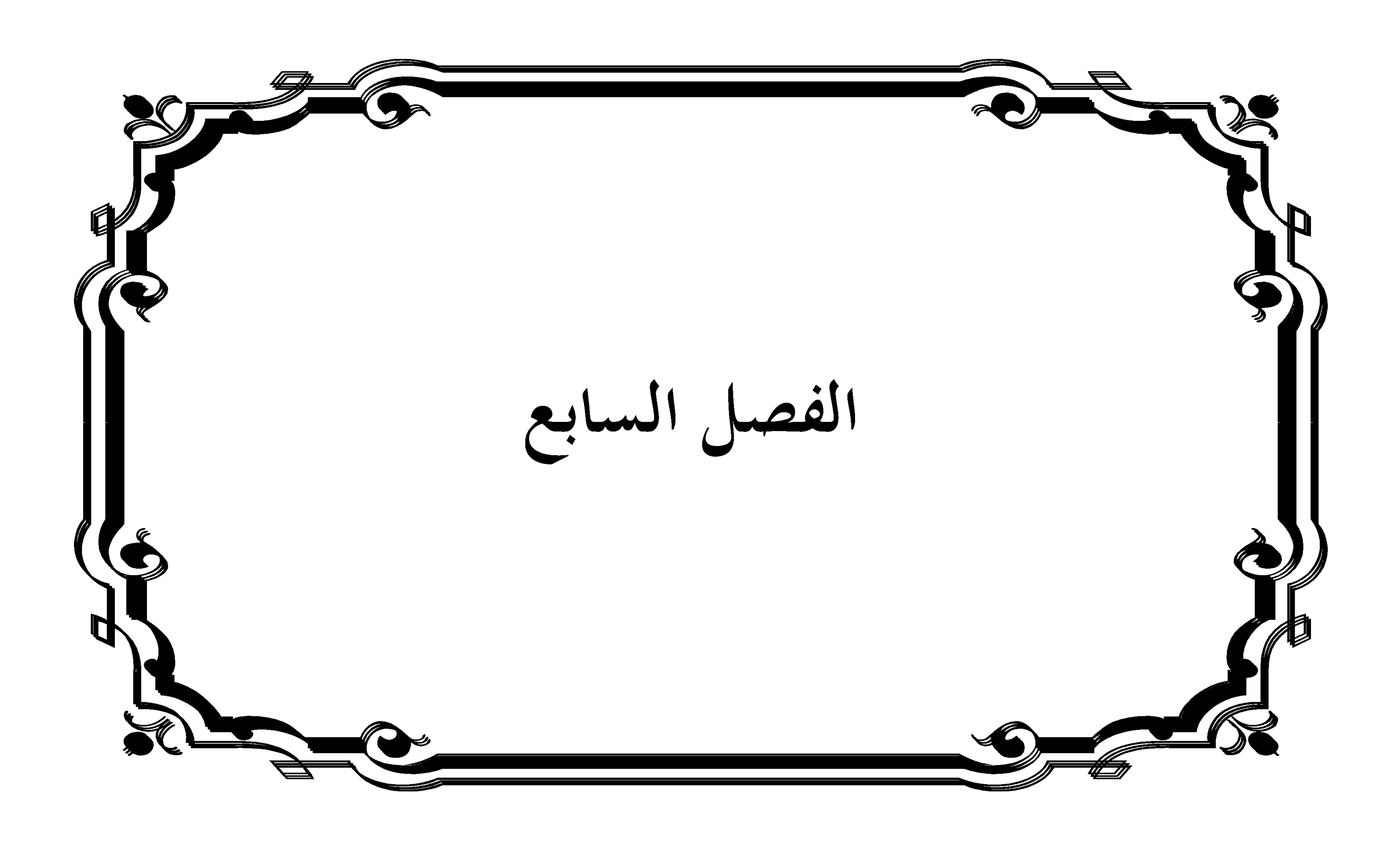
عادت إلى ذهني تلك التفاصيل الصغيرة وأنا أتفقد كتابه المخطوط، استرعت انتباهي تلك المقولة لأميل سيوران التي وضعها على الصفحة الأولى "الحياة محتملة فقط لذوي الطبائع التافهة " لم أقرأ ما كتبه عمي الجيلالي، ربما الكتابة عنده تسير في اتجاه حياة غير محتملة، شاحبة، كئيبة، ما أعرفه عن صديقي أنه ذات يوم خيّر بين الكتابة وفتح محل للكرانتيكا فاختار الأولى، الكتابة أيضا اختيارآخر للحياة ولكنها لم تكن يوما استمراراً للحياة كما أشاعه البعض، إن كانت كذلك فهي كتابة أقرب إلى التفاهة والسخافة، لا أدري كيف استغرقت ونسيت كل شيء من حولي وأنا في طريق عودتي إلى البيت.

في صباح اليوم الباكر حضّرت الزوجة الحلويات التقليدية بطلب مني، لأشارك الزملاء حفل توديع زميل لنا أحيل على التقاعد، هو آخر الزملاء القدامى في العمل، ليدخل الحياة الثانية بعد أن تشرّبت رئتاه الغبار لأكثر من 34 سنة، هذه الوظيفة التي حوّلتنا إلى كائنات عجيبة مقززة، خاملة، منبطحة، ساذجة تعيش ببعد واحد ولا ترى من الحياة إلا المرتب الشهري الكئيب، نحيا ليوم أو بعض يوم، نشتري اللحم، والمصروف الشهري، وندفع فواتير الكهرباء والماء، ونسدّد الديون المتراكمة ونعود إلى سابق عهدنا ننتظر نهاية الشهر بمزيد من الأجر والثواب

والاحتضار. زميلي يبدأ تقاعده غير المريح ابتداءً من اليوم، وصلت إلى العمل ومعي قفة الحلويات، وجدت أمامي كل الزملاء القدامى والجدد، افتتح أحدهم مراسيم الاحتفال، قلنا بعض الشهادات في حق زميلنا وانتهى الحفل تفرق الجمع وكأن شيئا لم يكن، عاد العبوس إلى تلك الوجوه مرة أخرى تحت جدران المكاتب الشاحبة، انتظرني أحد الزملاء القدامى أمام البوابة الخارجية، ليعتذر لي عن بعض السلوكات التي قام بها عندما كان رئيسا للفرع منذ سنتين، كان يتحدث معي وعقدة الذنب تأخذ بتلابيبه، قلت له هوّن على نفسك ما فعلته كان تصرفا عاديا، الرؤساء لا يخطئون، ما قام به هو تصرف إداري محض، الزميل الذي استفاد من الترقية لم يكن أقوى المرشحين للمنصب الجديد لولا سوء تقديرك، قبلت اعتذاره وغفرانه، كان طوال الوقت يبحث عن مخرج لغلطته، لم أكترث كثيرا لهذه السلوكات الإدارية، أضحت المسؤولية في الزمن الراهن من أصعب المهمات، شباب متهور على الأبواب، شكاوى لا تنتهي، شعب متذمر، أرواح متمردة على السائد، لهم ألف مبرر للثورة، لم تعد الإدارة تلبي الطلبات المجنونة للمجتمع، الأمة تحررت والإدارة لا تزال تحافظ على وتيرتها البطيئة في تلبية رغبات المجتمع، الإدارة آلة غبية، التسرع يقحمنا في حماقات وأخطاء جسيمة غالبا ما تنتهي في أروقة المحاكم، العقار الفلاحي أصبح الهوس الذي يقض مضاجع المسؤولين ويقطع رؤوسهم، بدرجات متفاوتة العقارات الفلاحية أكبر خطر يهدد مسيريه، ما من أحد يقاوم الإغراءات التي يتقدم بها أصحاب المشاريع والعقارات، لحسن الحظ أنني لستُ مسؤولا، الملفات الخطيرة لها أصحابها، أنا أكتفي بمهام محددة تكاد تكون غير ذات أهمية، لا يهمني سوى استهلاك ساعات العمل والجلوس مع أحد الأصدقاء

على عتبة أحد المقاهي وأنا في هذه اللحظة شبه غائب عن مستجدات العمل ومشاكله، مجرد عون تنفيذ، أنفذ ما يطلبه رئيسي ومديري .

كنت أفكّر في رئيسي السابق الذي أستيقظ فيه الضمير وعادت فيه الروح النقية، أخطأ معي ورشّح آخر وكتب عنه تقرير تزكية أما أنا فتجاهلني، أخبرتني خديجة بكثير من تفاصيل العملية التي تمت فيها، والتحركات المشبوهة، كان يوصل له الأخبار ويتجسس على المستخدمين ويعمل وسيطا مع الأطراف التي تستفيد من الريع الإداري والعقاري، هذه المهام أحتقرها وأحتقر كل موظف فاسد، وضعنا لا يتحمل الكثير من الفساد، يكفينا إرهابا وفسادا وتخريبا وترديا للأوضاع. مسؤولي السابق اكتشف أن ما قام به غلطة كبيرة في حق نفسه وحق عمله، عانقني بشدة وأثنى عليّ وانصرف.عندما حضر كل الزملاء والأصدقاء ونحن نحتفل بأحدهم بمناسبة تقاعده، كنت أتمنى أن يكون هذا الاحتفال لي وهذا الاحتفاء بنهاية مشواري الوظيفي، كنت أتمنى عندما تنقضي هذه الساعة أخرج من هذه البوابة ولا ألتفت ورائي، أقطع ذلك الخيط الذي يربطني بهذه الإدارة إلى الأبد، بهدوء ودون تشنج وسلمية ومحبة ووداع أخير.



الفصل السابع

استعار عمي الجيلالي سيارة ابنه الجديدة ليوم واحد، أوصله حيث يعمل صباحا، ثم دار دورة كاملة نحو وهران، ليشق طريقه على الطريق السيار شرق-غرب، كانت أمامنا تتهادى كأننا في بساط الريح، صديقي الجيلالي لم تفارق الابتسامة محيّاه، ارتحت له كثيرا، المهمة التي تنتظرنا لم تكن هذه المرة شاقة عليه، فبالعكس هو الذي شجعني على إتمامها، كنت أخشى أن يتوقف فجأة ويتقهقر عن التقدم في مسألة عبد الهادي، كانت وجهتنا إلى وهران أسهل من ذي قبل، سوف نلتقي زبير المجنون في أحد أحياء مدينة وهران، بكناستيل، ذلك الحي الهادىء على الشاطيء الصخري والغابة التي تعانق الساحل، حي كبار القوم وسادة البلد ومتقاعدي الدولة الكبار وقدماء الوزراء وحانات البحارة المتميزة جدا. في سنوات التسعينيات كنا نقيم فيها مقابلات كرة القدم مع شباب الحي، في ملعب يقع تماما في وسط غابة صنوبر، نلعب ونعود في حافلة إلى ديارنا محمّلين بذكريات البحر والصنوبر، عمي الجيلالي له معلومات كافية عن تواجد زبير المجنون أو نصف مجنون، هذا الإنسان المريض عقليا تعرض إلى أزمة حادة جنونية حادة داخل السجن، شفي منها جزئيا وكان رفيق عبد الهادي في نشاطه المشبوه، تفاصيل الزبير ومكان تواجده لم يكشف عنها بسبب تلقي معلومات من أحد معارف عمي الجيلالي وطلب منه التكتم. قبل العاشرة صباحا، وقبل دخولنا وهران عرجنا في طريقنا إلى كناستيل فهو الحي الشرقي من المدينة، اقتربنا منها دون عناء ودخلنا إلى أطراف الكناستيل، ركن السيارة إلى جانب مقهى يبدو خاليا من

الزبائن، رفع عمي الجيلالي هاتفه وكلّم أحدهم، قال له أنا وصلت ! موجود أمام المقهى المحدد القريب من الشاطيء، أنا في انتظارك، كنت أستمع إلى المحادثة المقتضبة، في المهمات الحرجة، الحديث غير المضبوط يسبب بعض مشاكل المكانية، يجب مراعاة الدقة الشديدة في توصيف المكان، لسوء الحظ أن حيّاً مثل حي الكناستيل يوجد فيه مقهى واحد يرتاده غرباء القوم في وقت محدد من اليوم، دخلنا المقهى ارتشفنا قهوة لتعديل بعض مزاجنا، لكل منا قهوته، لي رغبة في قهوة بريس مضغوطة، وعمي الجيلالي يحبها أقل تركيزا، بقينا متقابلين أمام طاولة، حولنا هدوء تام، بعض الأشخاص منزوون في ركن القهوة يكاد لا يسمع حديثهم. رنّ الهاتف من جديد، أكّد له وصوله، بعض لحظات دخل كهل ببزته الرياضية، اتجه إلينا بعد أن سلّم علينا، أخذ مكانا له بيننا، قدمّني عمي الجيلالي وبدوره قدّمه لي: سي الزبير، من قدماء عمال بطيوة، متقاعد، أحد رفقاء عبد الهادي، نظر إليّ متفحصا وجهي بشكل غريب، مدققا في تفاصيل وجهي، كأنه يريد قول شيء ما، قال لي عمي الجيلالي: يمكنك الآن التجوّل على الشاطيء لسويعة وبعدها نلتقي ؟ قمت من مكاني وخرجت من المقهى وتركتهما وحدهما داخل المقهى، خرجت أتبع طريقا مستقيما حتى لا أفقد نقطة تواجد المقهى، وجدت نفسي بعد التفاف قصير في رصيف مسور يواجه البحر، أنا الآن أمام الساحل الشرقي من وهران، كثرة الصخور لا تسمح بالسباحة، على مقربة مني مجموعة حانات هادئة إلا واحدة تشهد حركة ونشاطاً، البحر مضطرب ونسيم البحر بارد، يصلني بعض رذاذ الأمواج ورائحة السردين تصلني من مكان ما، مشيت وأنا أفكّر في عمي الجيلالي الذي اختلى بسي الزبير، بقيا وحدهما، ترى ماذا لو انتابته نوبة الجنون في تلك اللحظات ؟ سوف أكون متهما بقتله أو مساهما أو شريكا ؟ خالجني الخوف

الشديد ؟ ارتعدت فرائصي وزادت هبوب الرياح من حدة الشكوك التي تجتاحني، دون أن انتبه عدت أدراجي إلى الطريق الذي جئت منه قبل قليل، مشيت في نفس الطريق المستقيم إلى أن وصلت إلى موضع عمي الجيلالي، حتى أطمئن، حملقت في مكان طاولتهما ووجدتهما في المكان نفسه، فتنهدت، عدت إلى خارج المقهى بالقرب من سيارته وبدأت أدخّن عدة لفافات تبغ متتابعة، أحرق فيها قلقي، كنت وحيدا، كنت أراقب المارة كأن هذا الحي الراقي لا يوجد فيه سكان، خال من كل مظاهر الحياة، ليس مثل أحيائنا الشعبية تغلي بكل مظاهر الديموغرافية اللعينة، صراخ الباعة المتجولين، ضجيج الآلات، الأطفال متواجدون في كل مكان إلى درجة أننا لا نتمكن أحيانا من أخذ القيلولة إلا بعد محاولات عديدة أغلبها تبوء بالفشل، حتى مكبرات الصوت للمساجد تصدح في أوقاتها المحددة تصم الآذان، حياتنا في الأحياء الشعبية هو الكفاح من أجل سويعات هادئة، الأسر الفقيرة والمتوسطة كأن أولوياتها في الحياة هو المزيد من الأطفال، المزيد من النسل، المزيد من الصداع، المزيد من الانحطاط العصبي والمزيد من الشقاء.

مرت ساعتان، لم يتزحزح عمي الجيلالي من مكانه، يبدو أنه منشغل بالحديث مع الزبير، يستعرضان تفاصيل الأمور والوقائع التي تخص القضية، أحسست بالجوع في هذا الجو البارد، ابتعدت قليلا عن المكان من أمام المقهى لأبحث عن مطعم أو محل للمأكولات الخفيفة حتى أسكت الجراء التي بدأت بنباح يعلو صداحه بصوت أكاد أسمعه، دخلت أحد المحلات البيتزا، طلبت رقاقة بيتزا وكأس مشروبات، أحسست أن هناك طاقة إضافية للانتظار، انتظرت أكثر من الانتظار ذاته، انتبهت للساعة كانت قد تجاوزت الثانية، دفعت الثمن وخرجت من البيتزيريا، أخطو خطوات بطيئة إلى المقهى، دخلت إلى المقهى ووقفت عند رأس

عمي الجيلالي إشارة على نفاذ صبر الانتظار، على غير العادة حرّك عمي الجيلالي رأسه ونظر فيّ نظرة استهجان، رأيت وجهاً آخر لعمي الجيلالي، لم يكن وديعا، طلب مني أن أبقى خارج المقهى وأشار إليّ أن أبتعد، شعرت أن شيئا ما غيرعادي يجري في الخفاء، كأنه غير مرغوب فيّ، بدأت تمزقني بعض المشاعر المتناقضة بين الإصغاء للشعور الجارف للإهانة وعدم تهويل الأمر، بين الشكوك والثقة التي وضعتها في شخص عمي الجيلالي، انتظرت عند عتبة المقهى وكأنّ شيئا بدأ يتجاوزني وبدأت مساحة الطمأنينة تنحسر رويدا رويدا، أكثر من خمس ساعات كاملة كالمفاوضات الصعبة أو مساومة، لا أعرف تحديدا تفاصيل الوقائع كأنني خارج التغطية، لكن عمي الجيلالي عند عودته إلى السيارة سيخبرني بالتفاصيل، أكيد سيروي لي ما افتكّه من معلومات من الزبير المجنون. كنت قد استهلكت علبة سجاير كاملة وبعض فناجين القهوة طلبتها كلما أحسست أنني بحاجة إلى احتساء القهوة، أعدّل بها مزاجي الذي يتعكر بمرور الوقت، فعلا إنني غير مرتاح لهذه الجلسة غيرالحميمية، فجأة أطلّ الزبير وعمي الجيلالي خارج المقهى تبادلا التحيات، تعانقا وانصرف الزبير في اتجاه طريق البحر، أما عمي الجيلالي فتقدم إليّ ببطء، عندما اقترب مني، قال لي دون أن يرفع نظره إليّ وهو يهم بفتح باب سيارته، ألم أوصِكَ أن تبقى بعيدا يا عواد ؟ أصبح الأمر لا يحتمل ! كانت لهجة العتاب بادية عليه، قلت له: إنني قلقت عليك، وماذا أنت فاعل إذا حدث مكروه ما ! صدمني بنبرته القوية منفجرا في وجهي كالبركان، كان العرق البارد يتدفق من جبيني، التزمت الصمت، لأترك الهواجس تغزوني، ركبت معه السيارة ولا أعرف أي اتجاه أنا أسير فيه، كنت أنتظر أن يتفوه بكلمة، لم يعرني أي اهتمام، أكثر من ساعة ونصف وهو متأفف ومغتاظ، يبدو أن الحديث أصبح متعسرا معه، فتقوقعت نائيا بنفسي

عن عمي الجيلالي، وضعي أشبه بحمل إضافي، كانت السيارة تقترب من مدينة المطمر، مزيدا من الصبر على غير عادتي، فتيقنت أنني خارج التغطية. لم أكن على دراية بوقائع الجلسة التي جمعته بالمجنون زبير ولا أي شيء عن عبد الهادي ولا المفاوضات لتلك الساعات الطويلة بالكناستيل. الشكوك أصبحت ظلا تلازمني، بقيت في أريكة البيت أتحدث مع هواجسي، أدركت بحدسي أن عمي الجيلالي استحوذ على القضية بقضها وقضيضها، قطع أشواطاً في القضية، وجمع المعلومات، كنت أتساءل ما سبب تصرفاته الأخيرة ؟ لمَ هذا التجاهل المفاجيء لشخصي ؟ كنت أشبه بشخص يكدس الأسئلة الراهنة، أعتقد أن ذلك الركام يتحول يوما ما إلى سيل جارف من الغضب، أشفقت على نفسي، نفس المشاعر القديمة بدون جدوى شخصي وانعدام القيمية تراود ذهني، شخص سكنني وراح يملي عليّ ويوقظ المخاوف في نفسي، فتحت النافذة رغم برودة الطقس، أكاد أختنق، استنشقت هواءً بارداً في ليل مظلم واستعددت للنوم بنفس القلق.

في صبيحة اليوم، أخذت سجائرَ متتالية أمام فنجان قهوة "ناقوس" تميل إلى المرارة، لأبدأ بها يومي كما بدأته منذ 24 سنة خلت، توقفت الحافلة عند النقطة المعتادة وذرعت تلك المسافة المألوفة لي والمألوفة لدى كل سكان المطمر، هرولت كأنني أريد أن أتخلص من هذه المسافة اللعينة بأسرع وقت، كنت من قبل ولسذاجتي أعتقد أن هذه المسافة هي الشيء الوحيد الذي يحيل بيني وبين حقائق الدنيا ولكن تبين الأمر، أنّ هناك أشخاصاً آخرين يعترضون طريقنا في الحياة، لا بأس هناك آلاف المسوغات والمبررات لأجل الكفاح لانتزاع بعض الحقائق، الحقائق في هذه الحياة لا تعطى يجب أن تنتزع، أشبه بجر ثور من خصيتيه، يجب أن أقرر إما متابعة القضية أو أنأى بنفسي بعيدا، وأعود إلى عملي المعتاد بطرد الذباب عن

وجهي، أعتقد أنه ليس لي خيارات أخرى. لا يخلصني من هواجسي سوى النبيذ، النبيذ وحده من يطرد عني تلك المخاوف وينظفني من كل شوائب العالم ويجعل روحي أكثر نقاءً وغنى عن العالمين. أخذت من مستودع الخمور القريب من محطة القطارات التي كان صديقي بونوار يقتني منها البيرات وهو الذي كنت أرافقه إلى ذلك المكان، بعد انتهاء ساعات العمل المقررة، ذهبت إلى ذلك المستودع وطلبت النبيذ، وضعته في كيس ملوّن حتى لا يكتشف أحدا أمري، لأن أغلب الذين يعرفونني لديهم تلك الصورة القديمة عني، لا أدخن، لا أشرب، زوج محترم، موظف نقي، تلك الصورة النمطية لا أريد هتكها، ربما أنها تنفعني يوما رغم ما بدر مني من حماقات ذات يوم.

سوف أتعامل مع نفسي كتعاملي مع مائدة طعام متسخة بفضلات الطعام وقطرات المرق وقشور الفاكهة المرمية على مساحتها، أرمي بكل شيء، أرمي بكل شيء في سلة المهملات، هكذا تبين لي الأمر، سأعود إلى عملي بدون فضول أو وازع ضمير، لا يهمني شيء على الإطلاق.

انشغلت كعادتي بالوظيفة، أعالج الملفات واحدة تلو الأخرى، نسيت العالم الذي حوّلي، لم يعد هاجس الساعة يؤرقني، كان البورتابل أكثر هجرانا من ذي قبل، وجودي في المكتب أشبه بفيلم مصري باللون الأبيض والأسود يسارع نحو نهايته السعيدة.

صديقي بونوار دخل في صمت مطبق، يستفيق من غفوته الجميلة بعد سنوات طويلة، يبدو أنه وجد ضالته في خديجة التي تدخل إلى مكتبها دون أن تنبس بكلمة هي الأخرى سكتت وكفت عن التحرش بي، أعتقد أنه المشروع الذي

جسدته فعليا على أرض الواقع، خديجة ابتعدت عني بقوة الشيء الذي يجعلها أكثر استغراقا في زوجها وتعويض ما فاتها من انتظار، لكن وجدت نفسي الآن أكثر عزلة ووحدة، عمي الجيلالي لم يتصل بي ولا أعرف وضعه منذ آخر رحلة إلى وهران، أتصلت بوردية الوحيدة التي يتاح لي الاتصال بها.

– صباح الأنوار عزيزتي، كيفك ؟

– لابأس، الحمد لله، أنا سعيد أنك تذكرتني، كنت أعتقد أنك أدخلتني في دهاليز ذاكرتك الصماء !

– لا يا عزيزتي، لم أنساك أبدا، ممكن أن تتكرّمي عليّ بلقاء يليق بمقامك !

– نعم يمكنك المجيء عندي هذه الأمسية، أنا خارج البيت في أحد الأرياف، سأعيد الاتصال بك.

أقفلت الهاتف وانتظرت مكالمة أخرى من وردية .بعد ساعتين، كانت الساعة قاربت الرابعة مساءً، عندما رنّ الهاتف وأشعرتني بوصولها للبيت، هيأت نفسي ووظبت ملفاتي وأغلقت مكتبي وخرجت من القسم في اتجاه مكان إقامة وردية في تلك العمارة على واجهة الطريق. دخلت من بوابة العمارة وصعدت السلالم إلى أن واجهت باب غرفتها، لم أشعر بغرابة الموقف كأول مرة، أصبحت معتادا على الولوج إلى خلوتها بأقل اهتمام وأقل عناية. كانت ابتسامتها ظاهرة على وجهها، فتحت الباب وأدخلتني إلى صالتها المريحة حيث تركن مكتبتها القديمة المتداعية، جلست على إحدى الأرائك الموضوعة تحت النافذة مباشرة أتت بفنجان قهوة ساخن وضعته أمامي وهي تسألني عن وضعي و حالتي الصحية كمجاملة منها كنت حريصا على أن أجاملها وأبادلها الشعور بالاهتمام، أخبرتها أنني كنت في

وهران لأجل مهمة مع عمي الجيلالي، استفسرت عن المهمة، أخبرتها أنني أرافق صديقي العجوز في هذه السفرية، أحسست أن شيئا ما يدفعني للإفصاح عن هذه المهمة، تكلمت باقتضاب شديد، إلى درجة أن حديثي كان مبهما للغاية، طلبت منها السماح بإشعال لفافة تبغ حتى أشعر بارتياح أكثر، فتحت النافذة ورفعت الستائر إيذانا بالسماح لي بالتدخين، وواصلت حديثي عن القضية التي تؤرقني مع عبد الهادي، كانت تنظر تارة إلى وجهي، وتارة إلى سيجارتي وتستمع إليّ باهتمام بالغ، رأيت أن عينيها تفتحتا أكثر من ذي قبل كانت تستقطعني لأعيد العبارات التي تلفظت بها لتتابع حديثي، تستدرك ما لم تفهمه، تؤطر حديثي المبهم بشكل لم يسبق لها أن تعاملت معه بهذا الشكل، بعد ما أنهيت حديثي قالت لي، أنت في بؤرة الخطر ! ضحكت وأضافت أنت أشبه بوضع أحدهم، قام بتسمين الخراف وتعب في رعايتها وتربيتها، ثم يأتي أحد آخر يأكل لحم تلك الخراف اللذيذ، سأخبرك بشيء، عمك الجيلالي استحوذ على كل شيء، هناك مقايضة من نوع ما، أموال مقابل وثائق، بغريزة أنثى ومنطق لا أفهم شيئا خارج هذا النطاق، سوف أساعدك في هذه القضية. دون تريث قلت لها كيف ؟ بطريقتي الخاصة سأغنيك عن تتبع مراحل القضية وهذا زبير المجنون وعمك الجيلالي، أعرف أنني أجد طريقة ما. كانت تتكلم بتأكّد وثقة في النفس، قلت في نفسي، هذا أمر مشجع للغاية، سوف تختصر لي الزمن والجهد والمال، قالت لي إنني مغفل كيف تركت هذه القضية تذهب من يديّ بهذه السهولة ؟

أغلب السيارات غير مرخص لها، يطلقون أبواقهم عند رؤيتهم لزبون جيد، وردية من الزبائن الجيدين، يتودد إليها أصحاب الكلونديستانات لأجل بضعة مئات دنانير إضافية، بقيت وردية دون أن تتزحزح من مكانها وهم يعرضون

خدماتهم عليها ، لم تستجب لهم، يبدو أنها تنتظر أحداً ما. بعد نحو ربع ساعة أشارت إلى أحدهم، ركبت معه في المقاعد الخلفية وانطلقت السيارة، طلبت من السائق أن يأخذها إلى مستغانم، كانت تعرفه جيدا، السفر خارج البلد يحتاج إلى معرفة مسبقة بصاحب السيارة على الأقل، تعرفه جيدا وسبق لها أن أوصلها إلى اتجاهات مختلفة.

- في أي مكان بمستغانم يا وردية ؟ قالت له : "بايموت" بصوت خافت.

انطلقت السيارة في إتجاه مستغانم، في طريق مزدحم بالسيارات والشاحنات، تارة تركن إلى الصف الطويل وتارة تتجاوز الشاحنات التي تعتاد على إيقاعات مختلفة من السرعة، كل شيء صامت إلا تلك الرياح التي تخترق زجاج الباب الأمامي فيحدث صوتا يغري بالنعاس، كانت وردية مستغرقة في تفتيش هاتفها كأنها تبحث عن اسم أو رقم ما، بعدها انتبهت إلى صاحب السيارة وأخبرته عن تجربتها في ركوب سيارات الكلونديستان وأن أحد الشباب بدر منه تحرش علني لولا تدخل بعض أقاربه في سحب الشكوى من قسم الشرطة، أقسمت ألاّ أركب مع أحد إلا إذا كنت على دراية به. قال لها أنت تعرفينني جيدا ؟ ، قالت نعم ألستَ أنتَ عبد الهادي ؟ آه طبعا من لا يعرفني ؟ أظن أنك ركبت معي من قبل، أجابت : نعم عدة مرات. وردية كسرت حاجز الصمت الصباحي، ظهرت لها عدة استفهامات كبقعة ضوء باهتة، أشياء ظهرت لها تباعا وهي غير متعجلة في أمرها، ستجعله يقول كل شيء، يعترف بكل شيء، سحرها الأنثوي يجعل الرجال يبوحون لها بأسرارهم المغلقة، في المقابل تظهر كأنها غير مهتمة لشيء، فتحت لعبد الهادي شهيته في الحديث، تحدث عن السنوات التي قضاها في بطيوة وتحديدا في

عين البية ببطيوة، استعرض سنوات الخدمة مع مسؤولين وأشخاص من مختلف الجنسيات والأعمار، تلك الأوقات التي كانت أكثر زخما في مسيرته المهنية ونضاله النقابي الإسلامي مع "سيت "، وكيف تمّ تنظيف قاعدة الحياة والوحدات الإنتاجية من الخمور والزنا والفسق والتضييق على الملحدين والمنافقين والكفار و آكلي لحوم الخنازير وأعداء الله وأعداء النبي، قال لها كانت مرحلة من اللحظات المشرقة في حياتي النضالية يا سيدتي، قمنا بواجبنا الديني على أحسن وجه لتوطيد الدولة الإسلامية القائمة على العدل والحق وعلى الحياء، لكن..لكن الفساد المستشري في أوصال الدولة يجعل المهمة شبه مستحيلة، كان على رفاقي المجاهدين الذين أوكلت لهم مهام تنظيف الدولة باستهداف الفساد مباشرة، رؤوس الفساد التي تتواجد في كل مكان، قبل وصولنا إليهم تمّ القبض علينا بتلفيق تهم جنائية، شاء لنا الله أن نقضي بعض الأوقات في السجن، حتى السجن أرجعناه بقوة إيماننا و صبرنا وبفضل رجالنا إلى أكثر أماكن عبادة، يُذكر فيها اسم الله، تمت محاكمتنا مع مجموعة زملائي في النقابة الإسلامية، هذا لا يردعنا وكان الله لهم بالمرصاد، اشتعلت النيران في كل أنحاء البلد وكان مجاهدونا لهم بالمرصاد.

اعترى وردية الخوف وهو يكشف لها جانبا من حياته، أصغت له ولاحظت انفعاله وحماسته الزائدين، لم تشأ توجيه حديثه بأسئلة تظهر فيها نيتها باستنطاقه، أحست بموقف حرج أمام عبد الهادي، قالت في نفسها أفضل طريقة لفهم بعض الخفايا في قضيته، أن تتركه يسرد لها قصته بشكل طبيعي دون تدخل منها، كانت تتابعه باهتمام، جلّ النقاط الحساسة تجاوزها، قضى أكثر من ساعة وهو يحدثها عن مساره المهني والنقابي وكل مرة يكيل اللعنات إلى الدولة ومسؤوليها.. اقتربت السيارة من مدينة مستغانم، خفّف عبد الهادي سيارته وسط خناق مروري، سألها

فجأة أنه ذات مرة شهدها برفقة أحد الموظفين في الفلاحة ؟ عواد، إيه قالت له، أحد الزملاء القدامى في العمل، قبل أن انتقل إلى وظيفة أخرى.

- آآآه فهمت !

- لم أعرف أنك من سكان المطمر ؟ بادرته بالسؤال حتى ينسى حديثه عن عواد.

- أنا من مواليد سيدي خطاب، أمي من المطمر من دواوير المنطقة، بعد مقتل أبي من طرف الفلاقة، انتقلت أمي إلى المطمر، بقيت سنين هناك إلى أن توفيت أمي وعدت إلى أعمامي بسيدي خطاب.

تنهدت وردية عند سماعها لمقتل أبيه، قالت له ما أشبه قصة أبيك بقصة أبي، الفرق هو في التوقيت أبوك قتل أثناء الحرب وأبي تخلصوا منه بعد الحرب في إحدى المناطق الحدودية !

- شوفي يا وردية الذين قتلوا أباك الأغا وقتلوا أبي زيان هم مجرد حثالات، قطاع طرق، رعاة ، فرنسا لم تخطيء عندما وصفتهم بأقبح الأوصاف والدليل أنهم لم يستطيعوا ولن يتمكنوا من تأسيس دولة، أُنظري إلى تلك الصفوف الطويلة أمام السفارات الأجنبية وخاصة فرنسا، أُنظري إلى عموم هذه الأمة الذي خذلها الله بخواتم أعمالها.

اخترقت السيارة طريقها في وسط مدينة مستغانم، متوجهين إلى أحد أحيائها القديمة حيث تتواجد عائلة وردية من أمها وقد قضت سنين طويلة في أحضان خالتها، أشارت له أن يدور في مكان محدد قريب من مدرسة، نزلت أجزلت له العطاء، استشفت وردية روح عبد الهادي وهي تنفث حقداً وبغضاً لفئات عريضة

من البشر، المتورمة بسخام الظلامية التي لفت العالم لعقد من الزمن وأكثر، مقتطعة من آلام البشر، ذلك الحقد الدفين يبحث عن ظروف أخرى ليتأجج تارة أخرى.

نزلت وردية عند أهلها ليومين كاملين، في كل مرة يتراءى لها شبحه وهو يضرم النيران في منطقة ما من مخيّلتها الهشة، كانت تعرفه معرفة سطحية، الآن بعد مسافة ستين كيلومتر كانت كافية ليظهر فيها وجهه الحقيقي ، وجهه المرعب، الوحشي، فقد لا يتوانى في الإقدام على إيذاء البشر وإيقاظ الغيلان، هذه الحقيقة يجب ان تطلعني عليها، من واجبها إيتاء هذه الخدمة، فحماسه الديني وجرعته الإيمانية قاتلة.

توسدت رأسها في إحدى غرف البيت المخصصة لها وهي تعبث ب"تيلي كوموند" وتقرأ أفكاره وتصرفاته المتطرفة، أحست أنها بحاجة إلى أن تتصل بي.

– أظن أنّ الوقت غير مناسب للاتصال بك، لكن الضرورة جعلتني أتصل بك في هذا الوقت.

– لا بأس، صديقتي.

– أريد أن أخبرك أن عبد الهادي رجل خطير ويجب تفاديه ما استطعت، الشر يطلع من عيونه !

– كيف عرفت ؟

– أوصلني إلى مستغانم في بايموت وعندما تجاذبنا الحديث كشف عن وجهه الحقيقي دون تحفظ.

– أريد منك معلومات أكثر.

- سأعود معه، وأخرج ما في قلبه من شرور.

أقفلت الهاتف وأنا مندهش كيف أمكنها أن تسبر أغواره وتكنه مجاهله في مسافة ستين كيلومتر، أنا الذي ذرعت المسافات منذ أشهر، ولم أحصل على أشياء ذات قيمة، وردية بدون تكلفة جهد وزمن ومال، حصدت الكثير، أعتقد أن المرأة هي الشخص الوحيد الذي يصلح للمهام الخطرة، فاتني أن أستدعيها لهذه مهمة بدلا من عمي الجيلالي الذي توارى وراء الغياب ولا أعرف مصيره منذ آخر رحلة إلى وهران.

قضت وردية يومين عند خالتها، خالتها تحملت مسؤولية تربيتها ذات شتاء، بعد وفاة أختها "القلعية "عام 1964، تكفلت بها عوضتها عن غياب الأم المؤسف، لم يرق إليها شك أنها في بيتها، عندما فتحت وردية عيونها فتحتها في بيت خالتها، وتلقت الرعاية الكاملة و لم تشعر يوما أنها امرأة فائضة عن الحاجة، لحسن الحظ أنها وجدت خالة حنون عملت ما في وسعها، نفس الغرفة التي خصصت لها في الطابق الثاني، لا تزال إلى اليوم تشغلها كلما أتت إلى هذا البيت المشحون بذكريات الطفولة والشباب.

عندما شعرت بإمتلاء روحها وتنفست عبق غرفتها القديم الذي يمتزج برائحة الحي القديم بملح البحر الذي شكّل معالم الحي بايموت، رفعت وردية الهاتف واتصلت بعبد الهادي لتخبره بانتهاء زيارتها وعودتها للمطمر.

ركن عبد الهادي سيارته أمام بيت خالة وردية وأذن لها بالوصول، حملت وردية حقيبتها ونزلت من الدور الثاني، ودّعت خالتها وخرجت. صعدت في سيارة

عبد الهادي وأنطلق في طريقه إلى المطمر، أشارت له أن يغيّر طريقه نحو شاطيء الرمال لأجل غذاء على شرفه.

فرح عبد الهادي بالدعوة المفاجئة للغذاء على الشاطيء، شكرها على كرمها، دخلا مطعم "سابليت" وأخذا مكانا لهما، كان المطعم متخصص في فاكهة البحر، يرتاده الفئة من الناس لأجل تميزه في حساء الأنواع البحرية، كانت لافتة كبيرة على مدخل المطعم تشير إلى ذلك. تجاذب عبد الهادي حديثه مع وردية بشكل عادي دون أن تستثيره، كانت مجموعة أسئلة تدور في خاطرها، تريد أن تسلّ أول خيط أسئلة للبوح اللامحدود، طلبت طبق حساء سمك وهي تقرأ "الموني" الذي عرضه عليهما النادل، كانت تريد بطريقتها الخاصة استثارته، قالت له: تحدثت عن دخولك السجن بسبب تلفيق مؤامرة، كيف حدث ذلك ؟ سألته بحذر وأضافت أن قصتك تشبه قصتي في كثير من تفاصيلها، أبي تمّ إعدامه في منطقة حدودية، أنا وأنت نتقاسم كثير من معاناة الإنسانية، أبي اتّهم بالعمالة لفرنسا. تفرس وجهها جيدا،هزّ رأسه بالإيجاب، فَهِم أنها تريد بعض التفاصيل غيرالمرغوب في البوح بها، بلع ريقه وقال لها: أخبرك بحقيقة الأمر، كان الامتعاض ظاهرا على وجهه، شوفي يا وردية، تعمدت الاستيلاء على حافظات أوراق وأرشيف عائلة بلعباس، لأنها العائلة الوحيدة المعروفة الذي يحوز على أرشيف منطقتنا، لأنه كان ينشط في منطقتنا، يعطي الأوامر للفلاقة وتصله التقارير، يعرف كل شاردة وواردة، أخبرني أحد الأشخاص ممن شهد الأحداث، أن هناك إيعاز لجماعة الفلاقة بقتل أبي، منذ مدة أريد معرفة هؤلاء الأشخاص، ليس لغرض الانتقام وإنما لأعرف من هؤلاء الأشخاص الذين قتلوا أبي ! كان لي رفاق في وهران، يتتبعون أفراد عائلة بلعباس ويتابعون كل صغيرة وكبيرة، سكنهم في وسط

وهران، الحركة والازدحام أغلب ساعات النهار، في الساعة المعلومة دخلنا منزلهم، أفسدنا الأقفال وتسلقنا الجدران وتم الاستيلاء على جلّ الوثائق. قاطعته قبل أن ينهي حديثه: لكن ما لا أفهمه، هل المبادرة كانت من تلقاء نفسك ؟ لا، كانت أطراف أخرى قد شجعتني على ذلك ! اقترحوا عليّ أموالاً معتبرة. من ؟ من؟ كانت متحمسة للإجابة عن هذا السؤال. سلمت الأرشيف للجهة الطالبة لذلك، لا أعرف مصيره إلى الآن. كان هناك وسيط ولا أعرف تفاصيل تلك الجهة التي تقف وراء هذه العملية، الشيء الوحيد الذي كنت أنتظر معرفته هو من هم جماعة غليزان الذين نفذوا مقتل أبي، حسب تحرياتي والأقاويل والشهود المتناقضة أحيانا، هناك تسعة أشخاص، خمسة أفراد من غليزان وأربعة من المطمر ويلل، الوثيقة الوحيدة التي قدمها لي الوسيط تشير إلى تسعة أفراد ينشطون في القطاع العملياتي بمنطقة سيدي خطاب وأولاد عدّي، أصدقك القول أنني لا أعرف أين استقر الأرشيف وإلى أين وصل، تلك الجهة أقنعتني أن الإجابة عن معرفة أولئك "الفلاقة" هو الأرشيف الجامع الشامل لكل أسرار الثورة في المنطقة الغربية للوطن.

كانا قد فرغا من أطباق الحساء والمأكولات البحرية الموضوعة أمامهما، نظرت وردية إلى ساعتها ونهضا من مكانهما متوجهين إلى خارج المطعم، استقلا السيارة وتوجها إلى المطمر، كانت وردية ترى أن أجوبة عبد الهادي غير مقنعة وهناك بؤر سوداء في قصته، أرادت إشعال لفافة تبغ ولكنها تراجعت عن ذلك وخصوصا أن عبد الهادي حسّاس جدا لمثل هذه التصرفات، فأرجأت ذلك إلى ما بعد وصولها إلى البيت، عاد الصمت مجددا يقف حاجزا بينهما. ثم استدركت بسؤالها كيف تم إلقاء القبض عليكم ؟ ضمن جماعتنا أحد الأشخاص تعرفت عليه العجوز بسهولة، لم يأخذ احتياطاته، يسكن بالمدينة نفسها، تم تسريب الخبر عن طريق

أحد افراد أسرته، هذا الشخص اسمه الزبير، قمنا بتعذيبه في السجن ومحاولة قتله، لكن سلطات السجن حالت دون ذلك بوضعه في عنبر خاص، جنّ الزبير بعد ذلك وكان عنيفا، فأودعته السلطات القضائية في مستشفى سيدي شحمي، وأنا لا أشك أنه انتقم منا، يُقال إنه يحوز جزءا كبيرا من الأرشيف !، تفاجأت وهو يعيد اسم هذا الشخص، تذكرت كيف أن هذا الاسم مرّ بذاكرتها. زبير المجنون هو نفسه ذلك الشخص الذي يقيم في الكناستيل، وقد تعامل مع الجيلالي صديق عواد.

وصلت وردية إلى بيتها بالمطمر، طلبتني بسرعة، كانت الخامسة مساءً حينما، اتصلت بي، الحافلة كانت على مشارف مدينتي، تئن تحت ضغط المرور وحواجز الشرطة، رفعت هاتفي لأرد عليها، كان العياء قد بلغ مني مبلغا كبيرا، العودة أصبحت متعسرة جدا، طلبت منها أن تؤجل الأمر، لكنها اصرت بقلق شديد على العودة في أقرب وقت تمسكت بحجة العياء ولا يمكنني القدوم بعد نزولي في المحطة، قاطعتها قائلا: يا وردية، أريد أن أتخلى عن هذه القضية، أريد أن أتخلص منها، عبد الهادي أقلقني كثيرا !!

- تريد أن تعود إلى مكانك الطبيعي وهدوئك الأبدي، تجتر النميمة المكتبية صباحا ومساءً، حتى خديجة التي كانت موضوع قصصك، اختفت من حياتك، كنت أنت سبب في اختفائها، ضحكت ضحكة مجلجلة وكأنها تتهكم بي، عليك بمواصلة بحثك بحب، انصحك لقاء عبد الهادي وتفتح معه الموضوع، هو ليس بذلك السوء ! ليس بذلك السوء الذي ترسب في ذهنك، تعرفت عليه هو شخص آخر، تجرّع المرارة وهو صغير وتعذب وهو كبير كما تعذّب من قبله

الآلاف، أنا أيضا تعذبت وواجهت مصيرا وقدرا يشبه قدره، سأخبرك بسر: كل صباح عندما أنهض، يتخيل لي العالم كأنه زائد فوق الحاجة، كبحيرة ملعونة، أنا أغرق في أعماقها وفي أوحالها، أصارع الوحل، أقاوم الموت بمحبة، تركت في أمي خصلة حب الحياة، رغم كل شيء أنا أحب الحياة، أواجه سوء السمعة بصدر رحب، اعتبر تاريخ أبي صفحة يجب التعامل معها مثلما نتعامل مع صورة لا روح فيها، أتعامل معها باللامبالاة، أنا وأنت من جيل جديد، من جيل آخر، من قدر آخر، من تربة أخرى، لا أريد أن يستمر معي التاريخ إلى ما لا نهاية، كانت وردية تكلمني بالهاتف وأحسّ بجديتها وإصرارها إلى حدّ البكاء، تغالب إصرارها بتوسل، بمحبة ، تلطمني بكلمات اللطف، فهمت من حديثها وهو يتسرب إلى قلبي، إنها تريد أن تحيا حياة تختلف عن حياة أسلافها، قالت لي وهي تنبهني إلى شيء ما : عواد !! كل تلك الأساطير والخرافات والحكايات التي غزت عقلك، مجرد أوهام، تراكمت في ذهنك، ترسبت في عقلك، أوهام تشبه الريح الخبيثة، قد تنتشر في العقول الساذجة، لا أحد له مصلحة في ذلك، الوطن للجميع . أقفلت الهاتف وأنا في ذهول عام ، كيف قالت لي ذلك دفعة واحدة !!

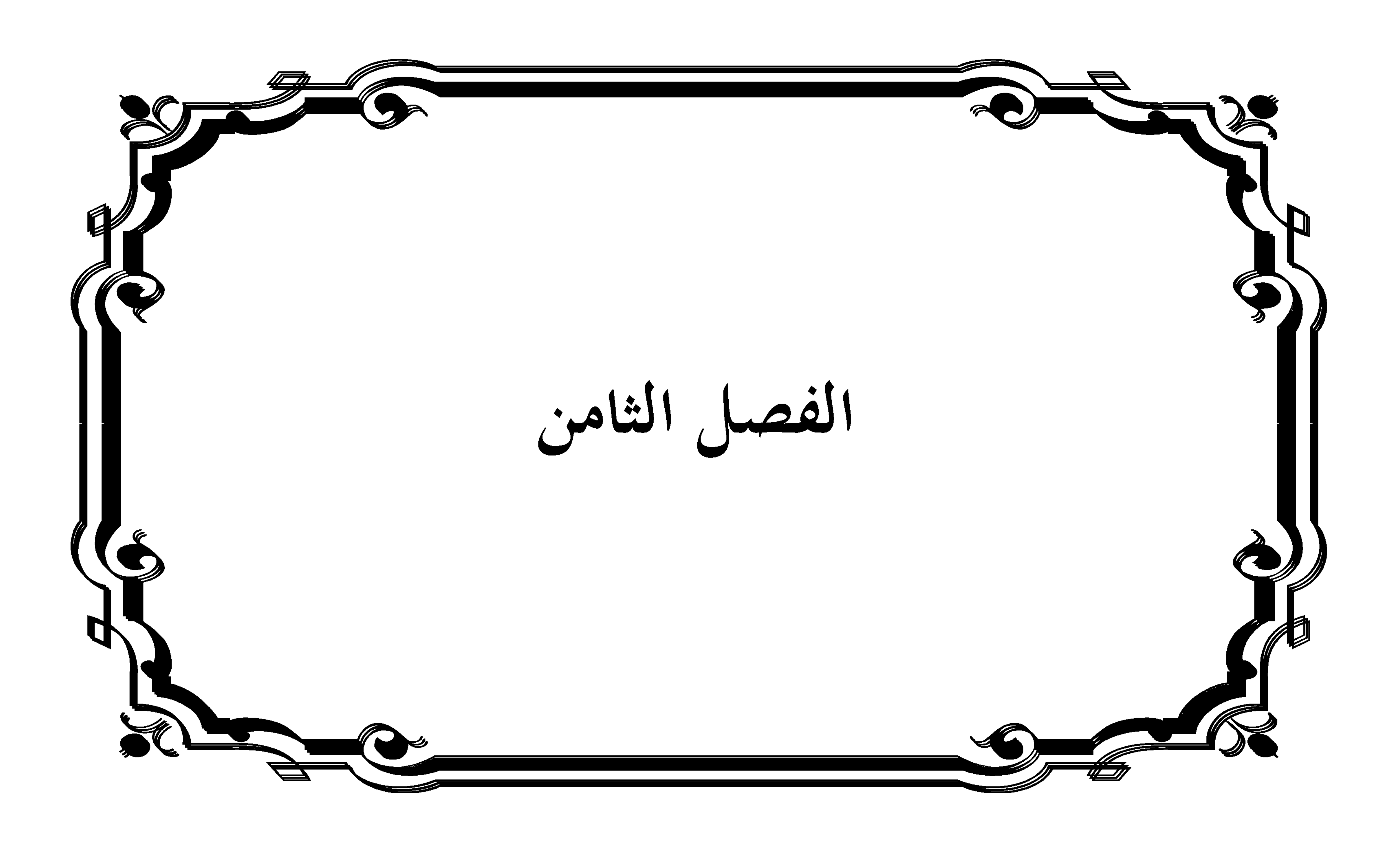
كنت أصرخ في داخلي وأنا أقول لم تكن الثورة خرافة ولا وهماً، ولا سينما خيال، ولا مجرد صور ثلاثية الأبعاد ركبت في مخابر التصوير التكنولوجية، الثورة مصير شعب، انتصر على جلاديه، دافع، قاوم، تحدى، أخيراً قال كلمته، كتب أجمل فصول الشرف في الكتاب الكوني. كنت أصرخ من أعماقي وأنا أعترض على وردية وهي تحدثني عن الوهم والأسطورة، قررت أن أمضي لبيتي، أعتذرت لها، حتى يزول غضبي ويهدأ قلبي وتسكن نفسي، مررت على حانة الكتوبية، ترددت،

دخلت ولكن لا أعرف كيف خرجت، ما أعرفه أنني استيقظت بنفس البذلة التي كنت أرتديها نهار أمس.

حاولت تجاهل وردية، وأن لا التفت إلى خزعبلاتها وأوهامها، أيضا أوهامي لاتقل بؤسا عن أوهامها، من يدري، أنا إنسان لا يزال في مرحلته الطبيعية الأولى أصدّق كل ما يقال، وأحيانا أتبنى تلك المقولات لعشرات السنين، إذ كيف أصبحت موظفا أقطع تلك المسافة الأربعمائية ولم يرف لي جفن، أقتنع بقليل العيش وأحاول أن أكون مواطنا صالحا، مؤدبا، خلوقا، حيوانا مجتمعيا، أجامل الناس بنفاق وأخفي سوأتي، أليس هذا وهم الأوهام، لا أحد يجبرك على أن تكون مواطنا صالحا ولا متدينا ولا مجاملا ولا قواداً.

فكرت طويلا، وردية كانت الجسد الذي أعشقه، والبياض الذي أستحم فيه، والنور الذي أضيء به عتمتي، والحب الذي أطرد به كدر الأزمنة، والمسافة الموازية للضجر، لكن أفكارها لم ترق لي، ضد قناعاتي، خياراتي، نظري للتاريخ وفلسفتي في الحياة. مجرد الركون لحديثها خيانة لذاتي، لم أشأ الاتصال بها، رغم معرفتي مسبقا أنني سأخسر جسدا رائعا، أخسر لياليَ مثيرة، أخسر الملجأ الوحيد لروحي وأخسر هواي. سوف أعود إلى الوظيفة ببساطة المواطن الذي أخدمه، موظف برتبة إنسان الذي يرمّم كل حين آدميته التي تنهارمنها كل يوم أحجار شخصي البائس، أربع وعشرون سنة من أكل الخراءات الإدارية بما تشمله من قوانين ولوائح وقرارات ومناشير وتوصيات، أمتثلها وأحوّلها إلى خدمات نافعة للبشر، لم أتنكر يوما للإدارة ولا للوطن ولا للتاريخ. عدت إلى الوظيفة والتحقت بها مُكرهاً، مرغماً

وضد طبيعتي التي تأبى القحب، رغم هذا وذاك وكل الأسباب التي قلتها والتي لم أقلها هي جزء من عمري الذي قضيته بضجر، أقبله على مضض.


الفصل الثامن

كنت أعربد في الشارع كأي ساكن أو مواطن يشعر ببصيص أمل، يشعر بانتمائه إلى هذه الأرض، قلت كلمتي لوردية فأعرضت عني، حرمتني من حبها ومن جسدها وإغراءاتها، مرت أمامي، خطفت نظرة في اتجاهي وأظهرت كل اللامبالاة الوجودية والفلسفية والممكنة وغير الممكنة، النساء سواء، لا فرق بين بنت شهيد وبنت حركي إلا بالقلب المفجوع، يبدو أنا العبد الإداري أكثر مأساوية منهما، لا بالوطن فرحت ولا بالعمالة تمتعت، كنت أنظر إليها وهي تبتعد عني في اتّجاه معاكس، راودتني فكرة حينها أن ألحق بها وهي تبتعد رويدا رويدا وهي تهتز اهتزاز الأنثى وتطلق سهام الرغبات. فكرت جيدا في قناعاتي التي لا تسمن ولا تغني من جوع، الجوع الجنسي بتفاصيل الكبت والحرمان كأي "بونادم" يعيش القهر التاريخي بعنوان القهر والفقر الجنسي. أردت أن أصرخ مجددا في اتّجاه الريح، لأعلن حبي لها، أمسكت عن الصراخ، أمسكت عن الحديث مع نفسي، الحديث عن الحب والأحبة يلزمه التوحد النفسي والعقلي والفكري والجسدي، لكنّني نتاج ظرفية وهي نتاج ظرفية مغايرة والجسدان لا يلتقيان، أول مرة أحس أن جسدي أصبح سجنا يلف جثتي و هرائي مثلما أحسست به وأنا أجتاز تلك المسافة الأربعمائية كل يوم، كل فصول السنة، كل المواسم المدنية والدينية، أنا هو عواد في شكله البائس الذي لا يشتكي بأي شيء ولا من أي شيء لولا زجاجات النبيذ التي تجبره على البوح والصراخ، يتحدث كما تتحدث المخلوقات المقهورة عن نفسها عندما تجتمع بعض شروط الألـم أو شرط المتعة.

الهاتف لا يجيب، تكلمني تلك الفتاة من وراء الخط أن تشكيل الرقم خاطيء وكأنني آت من عصر ومكان غير مألوفين، ربما أنا أعيش زمن الخطأ أو على أقل تقدير أعيش مكان الخطأ مع المرأة الخطأ. أعدت تشكيل الرقم طالبا وردية من جديد، لا شيء سوى تلك الفتاة في إصرار شديد تخبرني أنني مخطىء، طبعا أنا مقتنع أنني مخطىء في خياراتي الحياتية: الفكرة والمرأة والأصدقاء والوظيفة والمكان والزمان والفضاء. ما تبقى لي، ذكريات تلك الليلة الربيعية أو الخريفية وهي تمارس حبها معي بتناغم وانسجام ولا أحد حدّث نفسه عن الخلاف الذي ينشب مستقبلا، أنا على الأقل لم أفكر بذلك الشكل وحرّمت على نفسي جسدا لا ينطق إلا عن هوى.

مراجعة خياراتي صعب ، أصعب من تغيير طباعي التي صقلتها و شحذتها على مسن الأيام ، أعتقد جازما أنني فرطت في وردية إلى الأبد وفرطت في الوثائق إلى الأبد بعدما استأثر بها عمو الجيلالي لوحده و أستغّل سذاجتي و بساطتي و أسراري ، هذه الوثائق يقايض بها شيئا ما ضد طرف او آخر ، روح المؤامرة تسري في عروقه ، أنا أول ضحاياه المفترضين ، تخلى عني بسهولة و أستأثر بالوثائق ، ربما يستفيد منها في كتابة مذكراته السخيفة ، و يكتب عن بطوليته العظيمة و يترك لأناه حق شطف حرية و أنوار الآخرين وأبصارهم ، إن كانت الحقيقة هي ما يصبو إليه الإنسان قديما و حديثا ، فالحقيقة يجب أن نبحث عنها بشرف ، أعتقد كذلك .

لا أحد أخبرني ، لكن حدسي يخبرني ، أن عمي جيلالي قطع أشواطا في معرفة أشياء لا تخطر لي على البال . فليذهب إلى الجحيم !!

ذات صباح، بينما أنا متجه إلى الوظيفة اللعينة وأحسب خطواتي، توقفت سيارة أمامي، سمعت بوق سيارة ينبهني، التصقت برصيف الطريق حتى أتجنب أي سيارة تمر من حولي، سمعت صاحب السيارة يناديني، في حركة تلقائية، استدرت إلى يميني فوجدت عبد الهادي يبتسم ويتوسل أن أصعد معه السيارة . ترددتُ قليلا، أكثر فأكثر، الصعود مع عبد الهادي ليس بالأمر السهل وغير مأمون الجانب، ترجاني أن أركب معه، استجمعت شجاعتي وركبتُ. نفس سيارته القديمة التي امتطيتها ذات مرة، سلّم عليّ، كان بوجه بشوش ولكنه أكثر عمقا مما ظننت.

- أهلا بك عواد، مرحبا بي !

- أهلا بك عبد الهادي، رددت عليه والشكوك تأخذ بتلابيبي.

نظرت إليه ملياً، محاولا توقع الكلمات الأولى التي يفتتح بها الحديث.

- يا سي عواد !! هل هناك مشكلة بيننا !!!

- لا، لا أعتقد أنه يوجد أي مشكلة شخصية بيني وبينك .

-هل أنت رجل أمن مثلا ؟

- لستُ كذلك، أنت تعرفني ربما أكثر من غيري أنني موظف بسيط.

- إذاً !! ربما الفضول أو منافع دنيوية أو مصلحة شخصية، أوصلتك إلى ما أنتَ عليه الآن .

- ماذا تريد أن تقول ؟

– أريد ان أخبرك، أنه لا شأن لك بي !! ردّ بغضب، ثم استطرد قائلا: لماذا تتتبعون أثري، تفتشون عني ، تبحثون عن كل صغيرة وكبيرة ..أنت، الجيلالي، أشخاص آخرون، سأخبرك بسرّ: صحيح أنا ابن عميل و ابن حركي وإرهابي سابق ومحكوم عليه سابقا، ويمكن أن أعود في أي لحظة إلى السجن بالتخلص منكم !!! عد إلى وظيفتك، في سنوات النار، أشفقت عليك ولم أمسسك بسوء، وأنت تسير في هذا الطريق وحدك، أنا دائن لك ولحياتك !! في أحد الأيام، إذا تذكر حملتك في سيارتي أكثر من مرة، وتجاهلتك مرات، يجب أن تعرف، أنك كنت ذات يوم كلباً من كلاب السلطة، كل الموظفين: كلاب السلطة، لكن أشفقت عليك ولا أحد تعرض لك ولا أحد توعدك، عمرك كان أطول مما كنا نظن، أخبرك يجب أن تبتعد عن طريقي، سأخبرك أيضا أن صديقك الجيلالي اشترى وثائق تافهة، لا معنى لها، احتال عليه الزبير المجنون، صديقك الجيلالي كان يعمل لحساب ميلود الآغا، نفس هذا الشخص الذي كنت أعمل لحسابه ذات يوم وهو في فرنسا، حيث أغدق عليّ بالأموال والجوائز، لسوء الطالع استولى زبير المجنون على وثائق مهمة وسلّمها إلى جهة تعمل لصالح السلطة. يجب أن تعلم، أنه من حقي معرفة من قتل أبي، مجموعة الفلاقة الذي قتلوا أبي، ليست لي نية الانتقام، أريد معرفة الأشخاص الذين أدانوا أبي ونفّذوا القتل في حقه، هذا أبسط حق أريد معرفته، بحثت عنه طويلا، وتحملت المشقة والعناء والنفقات بغير حساب، قضيت سنوات في السجن لأجل وثائق تافهة، لم أجد شيئا يشفي غليلي، اقتنعت بعدئذ أن القتلة في طريقهم الطبيعي إلى الفناء، بعد 2015 في رأيك من هو الباقي على قيد الحياة، إذا افترضنا أن عُمْر أحدهم عُمْر كلب.

كنت دهشا وهو يتحدث عن مأساته، تبدّد الخوف الذي اجتاحني، أحسست أنني أمام شخص استثنائي وهو يسرد قصة حياته في سهولة لم أكن أتوقعها بتاتا، أخبرني عن كل شيء، قال لي: أنا الآن مجرد سائق عربة مهترئة، أكسب بها قوت يومي، ليست لي أسرار، الأسرار هناك في دهاليز السلطة وفي الأركان المظلمة للمخابرات وأقسام الأرشيف في أكس بروفانس، لم يعد لي سرّ، حتى تتبعني أنت وشلّتك، عد إلى عملك وتوقف عن تتبعي، أنا بحاجة إلى سلام وخمول ذاتي، إلى طمأنينة مثل كل البشر، لي حق في حياتي الخاصة، دعوني وشأني، الأمن يعرف أنني وضعت السلاح إلى الأبد.

نزلت من السيارة، أحسست أن هناك ذيلا طويلا، ذيل الخيبة أسحبه ورائي، مشيت وأنا لا أصدّق سماع هذا الشخص وهو يترجاني. آآآآه كم أخطأت !!! ، قلت في نفسي هل أخطأت ؟ لا أدري تحديدا، ليس لمجرد الملل أو الكدر والفضول، هناك أشياء أخرى تختفي بين ثنايا العقل والضمير أو عقدة ذنب، نحن صناديق سوداء مغلقة تتجاذبنا العقد والأهواء وترسبات الماضي والتاريخ والخيبات.

اشتقت لوردية، اشتقت لجسدها الجميل الفاتن الذي يوقظ فيّ كل الأصوات التي تسكنني منذ وجودي على هذه الأرض، حملت الهاتف، أخرجت رقمها الذي لم أحفظه رغم محاولاتي الجدية لتذكره، أعرف أن تزاحم الأرقام في ذهني ليس بالأمر الجيد تماما مثل البطاقة الشخصية للهوية، أقرأ أرقامها مثل أي وثيقة إدارية ولا أشعر بأي علاقة حميمية تجاهها. قبل كل شيء أنا موظف، آلي،

مباشر، نزق وسطحي مثل كل البشر الهامشيين أو المهمشين، أو الذين هم على حافة الحياة.

لولا كيس الخيبة الذي أحمله على ظهري، ما طرقت آفاقا أخرى خطرة ، لا صادفت وردية، ولا صادقت عمي الجيلالي، ولا سمعت ترجّي عبد الهادي، ولا تتبعته.

لا أعرف تماما وردية إذا كانت فعلا مستعدة لقبولي بشكلي الخام والمعقد والمركب، أنا أعشق جسدها، الحب مات فيّ منذ أمد بعيد، أحاول أن أعوّض هذا الحب بالإلحاح عليها، بالالتصاق بها، بالتنازل لها، أريد أن أصل إلى منطقتها المحرمة مثل ذات الليلة، أبي أيضا لم يعشق كما تبادر لي أول مرة، أبي محمود تزوج "القلعية "عنوة، انتقم لنفسه ذات يوم، وضع القلعية بين رجليه وشرب رحيقها، وأحرق كل أراضي العرش باسم الثورة والحزب والوطن والتاريخ .

شعرت أن زفرة الحسرة ساخنة تقفز مني إلى الأعلى، تخرج من دفعة واحدة، كمحاولة للتحرر من كل شيء !!! كانت أصابعي، تضغط على الأرقام لأكلمها، وضعت الهاتف لمدة أطول على آذني أسترق السمع لردّها، لكنها لم تفعل، طلبتها مرة أخرى، الرنين في الفراغ، تخيلت نفسي مثل شحاذ يستجدي المارة، لا بأس هذه المرأة تستحق أن أركع لأجلها، رضاها يسبق كل الفرائض والشعائر، ألح عليها بطلبي، لعلّني أجلس يوما قبالتها أصلّي. عدم ردّها لي أقلقني كثيرا، قصدت مسكنها، توغلت قليلا في العمارة، صعدت السلالم وأنا متردد في أمري، كنت أحسب الخطوات المتعثرة، وقفت أمام بابها، تشجعت وضغطت على زر الجرس، بقيت واقفا لعدة دقائق، انفتح الباب ووجدت نفسي أمام وردية وجها لوجه،

نظرت إليّ باستغراب، تفاجأت بوجودي، نظرتْ إليّ لتقرأ في عيني مشاعري المتسربة ، فتحت لي الباب وسمحت لي بالدخول.

- ما الذي جاء بك ؟ هناك مشكل ؟

- لا شيء، اشتقت إليك،، يا وردية ؟

يجب أن تعرف، أنه لم يسبق لي أن فتحت الباب لأحد دون سابق موعد، أضافت وردية وهي تزيح بوجهها وأنا جالس على أريكة الصالون، أتفرس في جسمها، كأنني أتعرف إليها لأول مرة.

- وردية، أنا أعشقك، أعتذر ما بادر مني في آخر مكالمة، كنت في كامل حماستي النزقة، أريد أنا وأنت التعامل خارج الأطر التي تنغص هدوءنا، أنا أحبك.

- ما الذي تريده مني بالضبط ؟

- أعتذر إليك.

- شوف يا عواد، لا أحمل أي ضغينة لك ولا لغيرك ولا للتاريخ ولا للوطن ولا للبطاطا، لم يحدث أنني حاسبت أحدا، لا أنت ولا غيرك، صدّقني،، أريد السلام الروحي والنفسي والعقلي، أمام هذا الظلم التاريخي، من حقنا العيش في هدوء وسلام، أرجوك عواد !

كانت تتحدث ونبرة حزينة تغلف كلماتها، تخرج من صميم قلبها، أحسست أنها صادقة، طأطأت رأسي، فكّرت أن جوا كهذا، لا يمكن الإعراب عن شعوري بقضاء ليلة مثيرة.

وضعت فنجان قهوة أمامي وأنا أتحسر على مجيئي في المكان الخطأ والزمن الخطأ، ارتشفت ما تبقى من القهوة، حضرت بعض الكلمات لأرفع الحرج عن نفسي، اعتذرت لها وهممت بالخروج، كشخص استشرف العاصفة في وجهها، ألوان الغضب تتشكّل على محياها، هدوؤها بدأ يتلاشى وراء كلماتها، نهضت من الأريكة، أستبق العاصفة، كانت كلماتها تصكّ أذني وعينياي غارقتان، تمسحان تضاريس جسمها الفاتن، رغم خمسينياتها لا تزال تثير في رغبة قاتلة.

خطوت خطوات مستعجلة إلى الباب ، أستوقفتني فجأة !!

- سؤال ؟

- نعم !

- أنت عواد صحيح ؟

- كأنك تتعرفين إليّ لأول مرة ؟

- أشك فيك ؟

- أنا عواد الموظف البائس الذي يذرع المسافة كل يوم بين البيت والعمل وأقطع مسافة أربعمائة متر ذهابا وإيابا لمدة أربع وعشرين سنة.

- لستَ كذلك ! وأردفت قائلة: أشعر أنك إنسان آخر، قل من أنت ؟

رفعت رأسي قليلا إلى السماء، مسحت جدران البيت بعيوني، تسمرت عيوني عند تلك الصورة المطرزة بإطار جميل، والدها وأمها في جلسة استعراضية جميلة، سكتت برهة من الزمن قبل أن أجلس مرة أخرى على الأريكة التي جلست عليها من قبل.

- أنا عواد ابن "محفوظ"، ذلك المسؤول الحزبي المجاهد، الذي كان يعشق أمك "القلعية"، عادت إليه بعد وفاة أبيك، مهما كان الأمر لا تأخذيني بجريرة أحد، أريد أن تكون علاقتي بك، علاقة حب فوق كل الحسابات، أنا أحبك رغما عن التاريخ ورغما عن نفسي.

في تلك الفترة التي كنت أتحدث فيها، كانت تنظر إليّ وهي تبكي وتشهق وهي غير متصورة لموقف كهذا. لم أكن خائفا ما دمت أرتدي ملابسي. قالت لي وهي مشيحة بوجهها عني، أبوك ضاجع أمي وأنت تريد مضاجعتي ! قلت لها: لا سيدتي، أبي عشق المرحومة أمك ثم ضاجعها، أما أنا ضاجعتك ومن بعد عشقتك، صاحت في وجهي : انصرف !

وقفت على مدخل الباب، نظرت إليها طويلا قبل أن أضع الخطوة الأولى خارج الغرفة، استقبلني الشارع الذي يضج بالناس، لم آبه لهم، كنت أعيش تلك اللحظات المتوترة، ركبت سيارة أجرة وأخبرته بوجهة لم يكن ينتظرها: حانة الكتوبية.

للرواية بقية ..

غليزان في 2015/01/12



(تعرفتُ عليه "محمد بن جبار" من خلال يوميات جميلة كان يكتبها في جداره الافتراضي عن شخصية نالت شهرة واسعة في هذا العالم، سماها: "مول النخالة" من خلالها كان يشرح الوضع الحرج للذات الجزائرية في يوميات غارقة في العادة و البؤس و الفقر و الجهل، بلغة بسيطة كان يمرر رسائل معقدة ومهمة. بكتابة "يوميات مول النخالة" المتذمر لكنه المستسلم بعفوية لصوت الحياة، أصبح الأصدقاء من مختلف البلاد العربية يتابعون ما يكتبه محمد بن جبار، و هو من خلال تلك الشخصية المسلية بالمفهوم الشعبي، يهتك أستار القبح جماليا، بحس نقدي نافذ يتطرق إلى الممنوعات و المقدسات، بسخرية موغلة في الهدم بغاية البناء، كمن يخبر "أسرار الأوهام" و يفجر أفخاخها من داخلها، بلغة مشهدية، ترسم حدود الضيق، وتوحي بالممكنات المتسعة،،، لحياة أكثر إنسانية،، أليست الكتابة ـ في المنتهى ـ هي تلك التي تترك هذا الأثر الجمالي، الذي يجعل المتلقي، ينتبه للهارب من العادي في أيامه، معيدا النظر في قناعاته كلها؟...

لا مبالغة، لكن الكثير من بلاغة التصوير، بتفاصيل غالبا ما يغفلها المترفون، الذين استغنوا عن التفاصيل مختزلين العالم، في فوضى النتائج التي تلغي المعاني باختزالها إلى مجرد مفاهيم و شعارات، بعيدا عن مجلاها في الحياة، لكن من زاوية: الحرمان، تبدو الحياة بعيون مندهشة لرجل ما زال كالطفل يقبل على الحياة، بسعادة الأطفال و هم يكتشفون العالم، كأنهم الأبطال الذين حبتهم الحياة بنعمها جميعا، غارقا في فرحة الكشف و الاكتشاف. ساحر عالمه السردي.. تلك البطل الذي سماه محمد بن جبار "مول النخالة....."

هو صديقي في الكتابة، وصداقة الكتابة عميقة، و مترفعة عن المصالح الآنية، صافية و تبحث عن الاستمرار المثمر، في "أرض الإبداع".

هذا النص الذي أصفه ب: المدهش. استطاع فيه محمد بن جبار أن يخلق شخصية من وحي حياته الخاصة اسمها "عواد" و هو موظف في مصلحة إدارية لخدمة الفلاحين،،،من خلال "تاريخ شخصية عواد"، ينكتب تاريخ الجزائر المعاصر كله، لكن من داخل الجزائر هذه المرة، من جزائري لم يستفد إلا من الفقر و الإلغاء و الإقصاء، رغم استقلال الجزائر المزعوم،،، و كعادة محمد بن جبار في الكتابة، ينتقل من التفاصيل المبتذلة المملة في اليوميات، ليطرح أعقد و أخطر المواضيع على السرد، بحكاية بسيطة عن رجل يبدو ضجرا من حياته، تكون له علاقة بزميلته، فتنقلب حياته بدءا من هذه العلاقة).

حكيمة صبايحي